جامعة الأزهر
كلية أصول الدين
والدعوة الإسلامية بالمنوفية

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

(قراءة في السياق الحضاري)

إعداد الدكتور

محمود بطل محمد أحمد

المدرس بكلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة
جامعة الأزهر الشريف

ملخص البحث

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

(قراءة في السياق الحضاري)

حين مثَّلت قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واحدةً من أبرز القضايا التي تعكس فاعلية هذا الدين،وقدرته الذاتية على الامتداد زماناً ومكاناً كان لابد وأن تتعدد السياقات الكاشفة عن دلالاتها المتنوعة؛ لذا أتى هذا البحث ليقرأ القضية في سياقها الحضاري بمفرداته المختلفة كالتهذيب الذاتي، والتكريم، والاستخلاف، والتسخير، والفعالية الحضارية، والشهود الحضاري.

وقد توصل البحث إلى العديد من النتائج أبرزها: أن هناك محورية للسياق الحضاري باعتباره مقصدًا عظيمًا من مقاصد هذا الدين، وأنه إذا كان التهذيب الذاتي هو الانطلاقة الحقيقية لأي بناء حضاري، فإن الأمر بالمعروف والنهي يحقق هذا التهذيب من خلال العديد من المسالك، ومن هذه النتائج كذلك أن المفهوم الأوَّلي للمعروف الذي يُؤمَر به في الإسلام ينضوي تحته كل حركة إنسانية هادفة كجزء لا يتجزأ من مفهوم الاستخلاف القرآني، وأخيرًا فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمثل الركيزة الأساسية في تحقق الأمة بجوهر خيريتها؛ ومن ثم تمثلها بمستلزمات الشهود الحضاري.

الكلمات المفتاحية: (المعروف – المنكر – الحضارة – التكريم – الفعالية الحضارية ــ الشهود الحضاري).

الباحث الدكتور

محمود بطل محمد أحمد

المدرس بقسم الثقافة الإسلامية

كلية الدعوة الإسلامية ،جامعة الأزهر

ABSTRACT

ENJOINING Good and Forbidding Evil (Reading in aCivilized Context)

When such as the late issue of the promotion of one evil of the most prominent issues that reflect as the effectiveness of this religion and its ability Alma Tia on the extension of time and place it was necessary and multiple contexts, revealing all the diverse implication, therefore brought this research to read the case in the context of Civilization In its various, vocabulary, such as self – refinement, honor, succession, harness, cultural activity, and cultural witnesses.

The research has reached many results, the most prominent of which are:there is acentral to the aCivilized Context as its agreat of this religion, and that if self – refinement is the real starting point of any Civilized construction .then the promotion of virtue and fobidment accomplishes this refinement through many paths, from these results as well as the concept of the initial well known who ordered him in Islam subsumed under it all the movement of humanitarian targeted as part not an integral part of the concept of successin Quranic,and finally in the DNA of the Order of Virtue and prevention of apillar of the basic in, check the nations essence Jeritha, and then represented by Witnesses of cultural pre– requisites.

Key Words: (Known – Evil - Civilization – Honoring – Civilization effectiveness - Civilization witnesses).

Researcher Dr.

Mahmoud Batal Mohammad Ahmed

Dr. of Islamic Culture Department
Faculty of Islamic Dawah
Al-Azhar University
email: Mahmoudahmed.13 @azhar.edu.eg

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وبعد،،

فإن هناك محددات عدة لجدارة أيٍّ من القضايا بالبحث والنقاش، ومن أبرزها ما يلي:

● **المحدد الأول:** قدر السياقات التي يمكن أن تُنظر من خلالها؛ لأن ذلك يعكس بالتبع تشعب امتدادات هذه القضية في خارطة المعرفة الإنسانية.

وإذا كانت رؤية القضايا من سياقات متنوعة تخضع للقدرة على توسيع أفق التدبر، فلا شكَّ أن عِظَم القضايا يعين هذه القدرة التدبرية، ويُعَمِّق بالتالي من نتائجها.

● **المحدد الثاني:** مدى قابليتها للانتقال من الإطار التنظيري المجرد إلى الإطار الواقعي العملي؛ ذلك لأنه يعني بالتبع اتساع دائرة التأثير لهذه القضية في الوجودين الذهني والخارجي.

إن هناك قضايا خاض فيها العقل الإنساني، وظلَّت محصورةً في إطار الوجود الذهني، ولم يكن لها مردود واقعي عملي، فأرهقت هذا العقل، وحالت بينه وبين التفاعل مع محيطه الخارجي.

وتأتي قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتكون مثالًا بارزًا لتحقق هذين المحددين؛ فمن حيث قابليتها للبحث ضمن سياقات متنوعة، فلا شك أن قراءة النصوص المؤصلة لهذه القضية من ناحية، وقراءة التراث الفكري للأمة حولها من ناحية أخرى يبرهن على تحقق هذا المحدد فيها؛ حيث تعددت سياقاتها ما بين اجتماعية وفقهية وسياسية وحضارية وغيرها وإن كان ذلك بنسب متفاوتة.

أما بخصوص المحدد الثاني، فلا شكَّ أن الدلالات الأولية لهذه القضية

تعكس لنا كونها ليست من تلك القضايا ذات الإطار النظري المجرد، بل إن لها إطارًا واقعيًّا.

إن هذا الإطار الواقعي لقضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس معناه مجرد القابلية لذلك، بل إن لدينا تطبيقات امتدت لقرون متوالية تبرهن على هذه القابلية.

ويأتي هذا البحث تحت عنوان: **(الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قراءة في السياق الحضاري)** ليعالج هذه القضية في سياقها الحضاري، وذلك من خلال رؤيتها في إطار مرتكزات الرؤية الحضارية الإسلامية من التهذيب الذاتي والتكريم والاستخلاف والتسخير وغيرها.

أهمية البحث

يمكن تلخيص أهمية البحث في النقاط التالية:

١- أهمية القضية التي يعالجها، وهي قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تلك القضية التي عكست فاعلية هذا الدين، وقدرته الذاتية على الامتداد زمانًا ومكانًا.

٢- أهمية السياق التي تُعالج فيه القضية، وهو السياق الحضاري، هذا السياق الذي نرى أنه لم يأخذ قدره المستحق من معالجات هذه القضية رغم أهميته الملحة.

٣- أهمية الإطار الزماني الذي تأتي فيه هذه المعالجة؛ حيث الأزمة الحضارية الراهنة التي تعيشها الأمة، والتي تستوجب الرجوع إلى الذاتية الإسلامية خاصة قضاياها المحورية.

مشكلة البحث

يمكن القول بأن هناك إشكاليتين رئيستين في تناول هذه القضية من منظورها الحضاري تمثلان مشكلة البحث.

أما الإشكالية الأولى: فتبرز في حالة التداخل التي لا يمكن إنكارها بين السياقات المختلفة، والتي يمكن اعتبارها ظاهرة صحية ما دام أنها تنضوي تحت ضوابطها المقررة في البناء المعرفي لكل سياق.

إن هذا التداخل يستوجب حالةً من التيقظ المستمر ليبقى في إطاره المنضبط من ناحية، وحتى لا نقيم علاقة تلازمية بين خصوصية كلٍّ من السياقات وانفصالها الكلي عن غيرها من السياقات من ناحية أخرى.

أما الإشكالية الثانية، فهي إشكالية تخص قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتتمثل في: أن هذه القضية من القضايا التي نالت القسط الأكبر من حالة التشويش التي أصابت قضايانا الإسلامية في عهد التراجع الحضاري كاللَّبس في مفاهيمها الجوهرية، وعدم القدرة على استيعاب حالة التراتُبيَّة المفترَضة بين الوعي بنصوصها المجردة، وإطارها التطبيقي.

خطة البحث

يتكون هذا البحث من **مقدمة، وتمهيد، وستة مطالب** على النحو التالي:

التمهيد، وبه نقطتان:

النقطة الأولى: مدخل مفاهيمي.

- **مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.**
- **مفهوم الحضارة.**

النقطة الثانية: محورية السياق الحضاري في تناول القضايا الإسلامية.

المطلب الأول: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحقيق التهذيب الذاتي.

المطلب الثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحقيق مرتكز التكريم.

المطلب الثالث: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحقيق مرتكز الاستخلاف.

المطلب الرابع: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحقيق مرتكز التسخير.

المطلب الخامس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتشكيل الفعالية الحضارية.

المطلب السادس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحقيق الشهود الحضاري.

التَّمهيد

النقطة الأولى: مدخل مفاهيمي

(أ) مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لا شكَّ أن لهذين المصطلحين تعريفات عامة ترصد معنَيْهما بعد أن صارا لقبًا وعَلَمًا، ولكن تتبع المفاهيم المُكَوِّنة لهذين المصطلحين يُسهم في التصور العام لهما.

إن معنى هذا أننا ينبغي أن نبحث في دلالة كل من (الأمر- النهي- المعروف- المنكر)

أما الأمر فهو: قول القائل لمن دونه: افعل.(١)

وأما النهي فهو: ضد الأمر، وهو قول القائل لمن دونه: لا تفعل.(٢)

وينبغي أن يُعلم أن مصطلح الأمر والنهي هنا إنما هو باعتبار مدلوله اللغوي الواسع وهو مطلق الطلب أي طلب الفعل في الأمر وطلب الترك في النهي، وليس باعتبار دلالته عند الأصوليين؛ إذ الأمر عندهم اقتضاء الفعل أو استدعاء الفعل بالقول ممن هو دونه.(٣)

---

(١) التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني صـ ٣٧، تحقيق: مجموعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط١(١٤٠٣هـ -١٩٨٣م).

(٢) المرجع السابق صـ ٢٤٨.

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري صـ٣١٠، عالم الكتب، القاهرة، ط١(١٤١٠هـ-١٩٩٠م).

وأما النهي عندهم فهو: اقتضاء أو استدعاء الترك بالقول ممن هو دونه.[١]

مفهوم المعروف والمنكر

إن جذرهما اللغوي يرجع إلى معنيين:

الأول: المعرفة والجهل، فالمعروف من المعرفة التي هي نقيض الجهل، والنكرة إنكارك الشيء، وهو نقيض المعرفة. **والنكرة:** خلاف المعرفة. ونكر الأمر نكيرًا، وأنكره إنكارًا ونكرًا: جَهِلَه."[٢]

الثانية: ما تسكن إليه النفس وما لا تسكن: فالمعروف ما تسكن إليه النفس، والمنكر ما تنكره النفس، فالمعروف سُمِّيَ معروفًا؛ لأن النفوس تسكن إليه.[٣]

وأما المنكر فنقيض ذلك: "نكر الشيء وأنكره: لم يقبله قلبه، ولم يعترف به لسانه."[٤]

إن ما مضى كان تَتَبُّعًا للدلالة اللغوية الأولى لمفهومي المعروف والمنكر، ولكننا لو وسَّعنا من دائرة الرصد الدلالي لهذين المصطلحين لوجدنا أنفسنا أمام معان أعمق؛ حيث إننا نجد هناك ما يشبه الاتجاهات في تحديد هذين

---

(١) العدة في أصول الفقه، القاضي أبو يعلى، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفراء جـ ١صـ١٥٩، حققه وعلق عليه وخرج نصه: د. أحمد بن علي بن سير المباركي، طـ٢ (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م).

(٢) لسان العرب، محمد بن مكرم بن على أبو الفضل، جمال الدين بن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي، جـ٥صـ٢٣٣، دار صادر، بيروت، طـ٣ (١٤١٤هـ).

(٣) معجم مقاييس اللغة جـ٤صـ٢٨٢ (معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، جـ٢صـ٧٥، دار الفكر (١٩٧٩م).

(٤) المرجع السابق جـ٥صـ٤٧٦.

المصطلحين تنتج أساسًا من الاختلاف في تحديد المعيار الحاكم لكون المعروف معروفًا والمنكَر منكرًا.

فالاتجاه الأول: نلحظ فيه النص على أن الشرع هو مصدر كون المعروف معروفًا والمنكر منكرًا، فالمعروف: هو "كل ما يَحْسُن في الشرع."(١)

وهو كذلك: "اسم جامع لكل ما عُرِف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع ونهى عنه من المحسنات والمقبحات."(٢)

والمنكر: "ضد المعروف، وكل ما قبحه الشرع وحرَّمه وكرهه، فهو منكر."(٣)

ومن تعريفات المعروف أيضًا في هذا الاتجاه أنه: "كل فعل أو قول أو قصد حسن شرعًا، والمنكر كل فعل أو قول أو قصد قَبُح شرعًا."(٤)

ويقرر الشوكاني أن المعروف هو: "ما كان من الأمور المعروفة في الشرع، لا المعروفة في العقل، أو العادة."(٥)

---

(١) التعريفات للجرجاني صـ ٢٢١ (مرجع سابق).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر جـ٣صـ ٢١٦ (النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).

(٣) المرجع السابق جـ ٥صـ١١٥.

(٤) معالم القربة في طلب الحسبة صـ ٢٢ (معالم القربة في طلب الحسبة، محمد بن محمد بن أحمد بن أبي زيد بن الأخوة، القرشي، ضياء الدين، دار الفنون «كمبردج» بدون.

(٥) القاموس الفقهي لغة واصطلاحًا، د. سعدي أبو حبيب، صـ٢٤٩، دار الفكر- دمشق، سورية، طـ٢(١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م).

ويمكن التعبير عن هذا الاتجاه بتعبير آخر، فالمنكر: "ما ليس فيه رضي الله تعالى من قول أو فعل. والمعروف ضده."(١)

ويضيف الإمام الطبري لازمًا من لوازم معيارية الشرع في تعريف المعروف والمنكر وهو أن أهل الإيمان هم الذين يعرفون المعروف، ويُنكرون المنكر.

يقول الطبري: "وأصل المعروف كل ما كان معروفًا فعله، جميلًا مستحسنًا،(١) غير مستقبَح في أهل الإيمان بالله، وإنما سُمِّيت طاعة الله معروفًا لأنه مما يعرفه أهل الإيمان ولا يستنكرون فعله."(٢)

وقد "سُمِّيَت معصية الله: منكرًا؛ لأن أهل الإيمان بالله يستنكرون فعلها، ويستعظمون رُكوبها."(٢)

الاتجاه الثاني في تعريف المعروف والمنكر

وهو الاتجاه الذي يُضيف العقل إلى الشرع، ومن أصحاب هذا الاتجاه الأصفهاني؛ حيث رأيناه يقرر في المفردات أن المعروف: "اسم لكل فعل يُعرف بالعقل أو الشرع حُسْنُه، والمنكر: ما يُنْكَر بهما."(٣)

ورأيناه يقول في معنى لفظ المنكر في القرآن: "والمنكر: كل فعل تحكم العقول الصحيحة بقبحه، أو تتوقف في استقباحه واستحسانه العقول، فتحكم بقبحه الشريعة."(٤)

---

(١) التوقيف على مهمات التعريف، التهانوي صـ٣١٧ (مرجع سابق).

(٢) تفسير الطبري جـ٧صـ١٠٥ (جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، طـ١ (١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م).

(٣) المفردات في غريب القرآن، صـ٥٦١، (المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق بيروت، طـ١ (١٤١٢هـ).

(٤) المرجع السابق صـ٨٢٣.

الاتجاه الثالث

وهو الذي يضيف إلى كل من الشرع والعقل معيار الطبع، فالمعروف: "ما قَبِله العقل، وأقرَّه الشرع، ووافقه كرم الطبع."(١)

إننا بعد استعراض هذه الاتجاهات في حقيقة كل من المعروف والمنكر يمكن التوصل إلى عدة أمور:

(١) ليس هناك تعارض حقيقي بين هذه الاتجاهات؛ لأن الطبع الذي يُعتبر في هذا الباب إنما هو الطبع السليم، والعقل المعتبر فيه هو العقل الرشيد، وكلاهما نور من أنوار الله تعالى يظللهما ويضمن انضباطهما النور الأكبر، وهو نور الوحي الإلهي.

(٢) إدخال الطبع السليم والعقل الرشيد في اعتبار المعروف والمنكر يُظهر مدى الارتباط بين هذا الدين وإنسانية الإنسان.

(٣) شمولية مفهومي المعروف والمنكر لكل مسارات الحركة البشرية؛ بحيث لا تضحي أيٌّ من مفردات هذه الحركة خارجة عنهما؛ فهي في منحاها المنضبط ضمن دائرة المعروف، وفي منحاها المنحرف ضمن دائرة المنكر.

بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحسبة

بقي أن نشير إلى أن هناك فرقًا بين كل من مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومفهوم الحسبة، وقد أشار الماوردي(٢) إلى هذا الفرق في تعريفه

---

(١) التوقيف على مهمات التعريف صـ٣١٠.

(٢) هو: الإمام العلامة، أقضى القضاة، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، الماوردي، الشافعي، صاحب التصانيف كالحاوي وأدب الدنيا والدين، والأحكام السلطانية، وغيرها، مات في ربيع الأول سنة خمسين وأربع مائة، وقد بلغ ستا وثمانين سنة. (سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ: شعيب الأرناؤوط جـ١٨صـ٦٥، مؤسسة الرسالة، طـ٣ (١٤٠٥هـ-١٩٨٥م).

للحسبة حيث عرفها بأنها: أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهي عن المنكر إذا أظهر فعله.(١)

لقد أظهر هذا التعريف أننا يمكن صياغة العلاقة بين كل من هذين المفهومين في علاقة العموم والخصوص المطلق، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أعم من الحسبة لأنها قاصرة على ما ظهر تركه من المعروف وما ظهر فعله من المنكر؛لذا آثرنا أن يكون بيان الأبعاد الحضارية مرتبطًا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر انطلاقًا من هذا العموم.

(ب) مفهوم الحضارة

الحضارة لغة

إن رصد الدلالة اللغوية لأيٍّ من المصطلحات يُعين في أمور ثلاث وهي:

الأول: التأكيد على الذاتية الفكرية في تداول المصطلحات.

الثاني: رصد الدلالة الأوَّلية للمصطلح في اللسان العربي.

الثالث: الوعي بالتطور الدلالي للمصطلح.

وانطلاقًا من هذه الثلاثية فإننا حين نتتبع مصطلح الحضارة في دلالته اللغوية الأولى نجد أنه يدور حول **معنيين رئيسين:**

الأول: معنى الحضور.

الثاني: معنى الإقامة والتوطن.

---

(١) الأحكام السلطانية، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي صـ ٣٤٩، دار الحديث، القاهرة، بدون، وللتوسع حول مفهوم وأصول الحسبة يراجع: أصول الحسبة في الإسلام، محمد كمال الدين إمام، دار الهداية، ط١(١٤٠٦ــ ١٩٨٦م)، الحسبة، دراسة أصولية تاريخية، د. أحمد صبحي منصور، مركز المحروسة، ط١(١٩٩٥م).

قال ابن فارس: "الحاء والضاد والراء: إيراد الشيء، وروده، ومشاهدته، وقد يجيء ما يَبْعُد عن هذا وإن كان الأصل واحدًا. فالحضر خلاف البدو."(١)

وأما معنى الإقامة والتوطن فلأن "**الحضر:** خلاف البدو. **والحاضر:** خلاف البادي...

والحاضر: المقيم في المدن والقرى، **والبادي:** المقيم بالبادية، **والحضارة:** الإقامة في الحضر."(٢)

ورغم وضوح هذين المعنيين في المعاجم اللغوية إلا أن معنى الإقامة والتوطن قد اشتُهِر، وأضحى هو المُقَدَّم في التتبع الجذري للمصطلح لدى جلة الباحثين، ويرى الدكتور نصر عارف أن علة ذلك تأثرُ المنحى البحثي الحضاري في الفكر العربي بأطروحة ابن خلدون حول مفهوم الحضارة، والذي جاء في منحى جزئي وليس مؤطِّرا للحركة البشرية في إطارها الكلي.(٣)

من هنا ارتأى الدكتور عارف ضرورة أن تُستحضر الدلالة اللغوية الثانية أعني (الشهادة)، واستأنس في ذلك بأن للشهادة في القرآن الكريم أربعة معان مترابطة تدخل في صميم المفهوم العام للحضارة وهي:

١- معنى التوحيد والإقرار بالعبودية لله.

٢- قول الحق وسلوك طريق العدل أو الإظهار والتبيين.

٣- التضحية والفداء.

٤- وصفٌ لهذه الأمة (لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ).(٤)

---

(١) معجم مقاييس اللغة، جـ٢صـ٧٥ (مرجع سابق).

(٢) لسان العرب، ابن منظور جـ٤صـ ١٩٧ (مرجع سابق).

(٣) يُنظر: الحضارة – الثقافة – المدنية، دراسة لمسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، د. نصر محمد عارف صـ ٥٥، المعهد العالي للفكر الإسلامي، سلسلة المفاهيم والمصطلحات(١)، طـ٢ (١٤١٥هـ ـ١٩٩٤م).

(٤) المرجع السابق صـ٥٨.

وأرى أن ارتباط مصطلح الحضارة في معناه اللغوي بمعنى الإقامة في الحضر هو ارتباط يرجع إلى الرؤية الظاهرية للحضارة، وميراثها التاريخي في الحواضر، وأن ارتباط معنى الشهادة بامتداداته المبيَّنة في اللغة والنص القرآني يرجع إلى الرؤية الباطنية للحضارة، ومن ثم فليس هناك مبرر لاستبعاد إحداهما من التكوين الدلالي اللغوي العام للمصطلح ما دام أن كلًّا منهما له مجاله الاستعمالي.

الحضارة اصطلاحًا

لم تقتصر الإشكاليات في كلمة الحضارة على إشكالية الجذر اللغوي لها، بل امتدت هذه الإشكاليات إلى المجال الاصطلاحي للكلمة، واتسعت امتداداتها، ويمكن القول بأن أبرز هذه الإشكاليات كثرة التعريفات، واتساع درجة اختلافها، وهنا لا يمكن أن يقتصر دور الباحث على مجرد سرد هذه التعريفات أو الاكتفاء ببعضها دون مبرر ترجيحي، بل يكون دوره تنميط هذه التعريفات أي الوصول إلى الاتجاهات التي تتقاسمها، وإذا طبقنا ذلك على مصطلح الحضارة فيمكن القول بأن هناك اتجاهين رئيسين يقتسمان تعريفات الحضارة وهما:

الاتجاه الأول: الاتجاه الشمولي في تعريف الحضارة حيث ينطلق هذا الاتجاه من شمول مصطلح الحضارة للمادي والمعنوي، ومن ذلك ما عرَّفها به (ول. ديورانت)[1] من أنها: "نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي."[2]

---

(١) ول ديورانت (١٨٨٥م ــ ١٩٨١م) مؤلف أمريكي، يُعتبر أحد أبرز الذين وقفوا جهودهم على تبسيط التاريخ والفلسفة، أشهر آثاره: الفلسفة والمشكلة الاجتماعية، قصة الفلسفة، قصة الحضارة، (معجم أعلام المورد، منير البعلبكي، صـ ١٩٩، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، طـ ١، ١٩٩٢م).

(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت، جـ١صـ٣، دار الجيل (١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م).

ويزيد (ديورانت) المفهوم إيضاحًا حين يبين لنا عناصره فيقول: "وإنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون.(١)

إننا نلاحظ هنا **ملاحظتين:**

الملاحظة الأولى: أنه تعريف شمولي للحضارة يضم المادي والمعنوي.

الملاحظة الثانية: أنه قد جعل السيادة في تعريف الحضارة للأسس ولم يتطرق للأثر، فالموارد والنظم والتقاليد ومتابعة العلوم والفنون هي أسس الحضارة أكثر من أن تكون نتاجها.

ومن تلك التعريفات الشمولية للحضارة تعريف الدكتور حسين مؤنس حيث قال: "الحضارة- في مفهومها العام- هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصودًا أم غير مقصود، وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية."(٢)

وجاء الدكتور: أحمد شلبي ليبين أن هذه الشمولية التي تقبع في ماهية مصطلح الحضارة تشكل إطارًا تمييزيًّا بينها وبين المصطلحين المتقاربين معها أعني مصطلحي الثقافة والمدنية، فذكر أن مصطلح الثقافة يعني الرقي في الأفكار النظرية، وأما مصطلح المدنية فيعني الرقي في العلوم، وجاء تعريف الحضارة عنده جامعًا بين الثقافة والمدنية حيث قال: "أما الحضارة فتشمل الرقي في المجالين جميعا."(٣)

---

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت، جـ١صـ٣، دار الجيل (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م).

(٢) الحضارة، دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، د. حسين مؤنس صـ١٣، سلسلة عالم المعرفة عدد (١) (١٩٧٨م).

(٣) المرجع السابق صـ ٢٠.

وقريب من هذا التعريف ما ذكره الشيخ البوطي (رحمه الله) فقد عرَّفها بأنها ثمرة التفاعل بين الإنسان والكون والحياة."[1]

الاتجاه الثاني: الاتجاه الذي يقصر الحضارة على المكون المادي حيث "يضع المفكرون الألمان حدًّا فاصلًا بين الحضارة والثقافة، فالحضارة، عندهم تشمل التقنية وسائر العوامل المادية، أما الثقافة فتشمل قيم المجتمع ومثله العليا، وخاصيته الفكرية والفنية والخلقية الكبرى."[2]

إننا بعد عرض هذين الاتجاهين في مفهوم الحضارة نتبنى الاتجاه الذي يجعل من الحضارة كيانًا شموليا ينضوي على مُكوِّنين: أحدهما معنوي يتمثل في الخلفيات المعرفية والقيمية، والآخر مادي يتمثل في نتاج التفاعل الإنساني المنطلق من هذه الخلفيات مع المحيط الكوني؛لأن هذا المفهوم يجعلنا أكثر استيعابًا للحركة البشرية بكل ارتساماتها.

النقطة الثانية

محورية السياق الحضاري في تناول القضايا الإسلامية

إن هناك دافعين رئيسين لحتمية السياق الحضاري، إحداهما دافع ذاتي، والآخر خارجي.

أما الدافع الذاتي: فنقصد به أن الحضارة مقصد من مقاصد هذا الدين شهدت بذلك أصوله من الوحي الإلهي؛ حيث "بمقدور المرء أن يلحظ دونما عناء كبير كيف أن تحولات أساسية ذات بعد حضاري تم التأكيد عليها وتغذيتها على

---

(١) منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، د. محمد سعيد رمضان البوطي صـ١٩، دار الفكر المعاصر – بيروت لبنان (١٩٩٨م).

(٢) صراع الحضارات بين عولمة غربية وبعث إسلامي، د. جعفر شيخ إدريس صـ١٠، إصدار مجلة البيان طـ١(١٤٣٣هـ).

مستوى القرآن والسنة والممارسة التاريخية، الأمر الذي قاد إلى تشكيل بيئة صالحة للنشاط العلمي من خلال شبكة من الشروط التي تحققت إثر هذه التحولات."[١]

وأعطانا الدكتور عماد خليل نماذج من هذه التحولات الجذرية ذات البعد الحضاري، ومنها:

- الإصلاح والإعمار في مواجهة التخريب والإفساد.
- المنهج في مواجهة الفوضى والخرافة.
- المعرفة في مواجهة الجهل والأمية.[٢]
- إن المقصد الحضاري في الإسلام مقصد متشعب الامتدادات.

"الدين الإسلامي يحتوي في فكره الحضاري:

ـ على امتداد زماني في الفكر الديني يعرض لقضية البشرية كلها من نشأتها إلى غايتها في دقة وعمق ووضوح.

ـ وعلى امتداد موضوعي يغطي مجالات الحياة جميعها.

ـ وعلى استمرارية الإسلام الذي هو دين الأنبياء جميعًا.

ـ وعلى شمولية الدعوة الإسلامية."[٣]

ورغم اتضاح الحضارة كمقصد من مقاصد هذه الرسالة الخاتمة فإن هناك قصورًا ملحوظًا ومزدوجًا في الوعي بذلك؛وأعني بالمزدوج أن بعضًا من

---

(١) صفحات من حضارة الإسلام (العلوم التطبيقية، دراسة في المعطيات وعوامل الازدهار والتوقف)، د. عماد الدين خليل صـ١٤٢، كلية التربية جامعة الموصل، بدون.

(٢) في الفقه الحضاري، حول منهج جديد لدراسة حضارة الإسلام، د. عماد الدين خليل، صـ١٥٤، كلية التربية جامعة الموصل، بدون.

(٣) فلسفة الحضارة الإسلامية، أحمد السايح (باختصار) صـ ٥، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف، سلسلة: دراسات في الإسلام (١٤١٠هـ - ١٩٨٩م).

معالجات القضايا الإسلامية تأتي في إطار منفصل عن بعدها الحضاري خاصة قضايا العقيدة والفقه.كما أنه في الوقت ذاته "تعاني مناهج دراسة الحضارة الإسلامية في مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا من عيوب شتى، أبرزها- ولا ريب- تقطيع جسد هذه الحضارة، وتقديمها للطالب مزقًا وتفاريق، وهي بهذا ستفقد شخصيتها المتميزة وملامحها المتفردة التي تمنحها الخصوصية بين الحضارات، وتصير مجرد أنشطة ثقافية أو معرفية أو مدنية في هذا المجال أو ذاك قد تتميز ببعض الخصائص، لكنها لا تعكس التصور النهائي لرؤية المنتمين إليها للحياة والعالم والوجود."(١)

الدافع الثاني: الخصوصية الزمانية، ونقصد بهذه الخصوصية هذا التراجع الحضاري الذي صار معه المسلم في حالة أطلق عليها مالك بن نبي حالة التفسخ الحضاري، تلك الحالة التي تأتي في طور انتهاء الدورة الحضارية، فيصبح معها الإنسان (إنسان ما بعد الحضارة).

يقول مالك بن نبي: "قبل بدء دورة من الدورات أو عند بدايتها يكون الإنسان في حالة سابقة للحضارة. أما في نهاية الدورة؛ فإن الإنسان يكون قد تفسخ حضاريًّا وسلبت منه الحضارة تمامًا. فيدخل في عهد ما بعد الحضارة."(٢)

لكن هل يعني هذا أن هناك تماثلًا بين هاتين الحالتين الإنسانيتين؟

وهل يضحي التقبل الحضاري لهذين الإنسانين واحدًا؟

يجيب مالك بن نبي على هذين التسآؤلين المهمين فيقول:

"فإذا كان ممكنًا المماثلة بين هاتين الحالتين من وجهة نظر سطحية لما فيهما من وجه الشبه الظاهرية. فإنه من الخطأ المماثلة بينهما من وجهة بيولوجية-

---

(١) فلسفة الحضارة الإسلامية، أحمد السايح (باختصار) صـ ١، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف، سلسلة: دراسات في الإسلام (١٤١٠هـ - ١٩٨٩م).

(٢) شروط النهضة، مالك بن نبي، صـ٧٠ دار الفكر، دمشق سورية، ط(١٩٨٦م).

تاريخية؛ إذ الإنسان الذي تفسخ حضاريًّا مخالف تمامًا للإنسان السابق على الحضارة أو الإنسان الفطري، فالأول ليس مجرد إنسان خارج عن الحضارة فحسب– كما هي الحال مع الثاني الذي سميناه فيما سلف "بالإنسان الطبيعي" إذ الإنسان المسلوب الحضارة لم يَعُد قابلًا لانجاز "عمل مُحَضر" (Oeuvre Civilisatrice) إلا إذا تغير هو نفسه عن جذوره الأساسية."[1]

وينبغي التنبه إلى أن ابن نبي لا يقصد بتغير الإنسان عن جذوره الأساسية انطلاقه بعيدًا عن مقوماته الحضارية التي أبدعت دورته الحضارية السابقة، بل على العكس يقصد بهذا التغير تركه لجذور أزمته الحضارية التي شكلت حالة التفسخ الحضاري لديه. وبرهان ذلك النظرة الشاملة لنظرية بن نبي الحضارية التي من أركانها التأكيد على حتمية انطلاق كل حضارة من مقوماتها الذاتية.

إن قراءة قضايانا وتحليلها في إطارها الحضاري إبان انطلاقتها الحضارية للأمة كان حديثًا مشفوعًا بظلال تطبيقية، لذا كانت هذه القراءة النظرية مشفوعة بواقع فعلي، أما في الخصوصية الزمنية التي تعيشها الأمة فإن حتمية هذه القرآءة أكثر إلحاحًا نظرًا لحالة الانفصال بين التأصيل والواقع.

هذا وليست الخصوصية الزمانية التي تعيشها الأمة قاصرة عليها، بل إن الإشكالية أن لها امتدادًا خارجيًّا تمثله سلطة الحضارة الغربية، ويمكن تلخيص مظاهر هذا التسلط الحضاري الغربي في محاولات الوقوف دون قرآءة الأمة لنصوصها قرآءة حضاريَّة واعيَة، وذلك بوسائل شتى منها:

- تراكم الشبهات المثارة حول القضايا الإسلامية ما دقَّ منها وما جل قصدًا لاستهلاك العقل المسلم في دوامة التعقب لهذه الشبهات مما يقطع عليه حالة الإبداع الفكري.

(١) شروط النهضة، مالك بن نبي، صـ٧٠ دار الفكر، دمشق سورية، طـ(١٩٨٦م).

• تصدير قرآءات تلبس ثوب القرآءة الحضارية، لكنها في حقيقة الأمر تذهب بمكانة النص؛ حيث إنها لا تنطلق من مقومات النظام المعرفي الإسلامي، بل تنطلق من مناهج غريبة عليه.

• إقامة علاقة تلازمية بين الواقع والنص بحيث تتخذ من واقع الأمة الحضاري المتراجع برهانًا على قصور ما تحمل من مناهج.

• وأخيرًا وليس آخرًا سلب الأمة مقام الشهود الحضاري عن طريق عولمة وقولبة العقل المسلم بطائفة من المفاهيم والمضامين، والادعاء بأن الحضارة الغربية قد وصلت إلى آخر ما يمكن للترقي الإنساني أن يصل إليه، وبالتالي فإن مفاهيم رئيسة في هوية الأمة كالوسطية والخيرية والعالمية والشهادة على الأمم تضحي من باب تحصيل الحاصل الذي يُعَدُّ الخوض فيه من باب مخالفة المعقول.

إن التعامل مع هذه التحديات الخارجية ينبغي ألا يُحصر في نطاق عاطفي وجداني، بل إن التعامل الأمثل معها يكمن فيما يلي:

• تشكيل حالة من الوعي بهوية رؤيتنا الحضارية ومفردات التمايز بينها وبين غيرها من الحضارات " فالإسلام له شخصيته المميزة المستمدة من خلال مبدعه ومشرعه وإحاطة علمه وخبرته بالنفس البشرية وما يصلحها أو يضرها، والمجتمع الإسلامي القائم على هذا مجتمع يقيم تصرفاته وحضارته على الاعتراف بالله والاعتقاد بوجوده ووحدانيته وحكمته."[1]

لا بد من النظر الدقيق إذاً في مفاصل التمايز بين الحضارة الإسلامية والغربية كالوعي مثلًا بأن "أوربه ركَّبت في مضمون ثقافتها مزيجًا من الأشياء

(١) حضارتنا وحضارتهم، د. عبد المنعم البر، صـ٩، دار المعارف، بدون.

والأشكال من التقنية والجمالية، بينما الشرق الإسلامي ركبت في ثقافته مزيجًا من فكرتين: الحقيقة والخير."[١]

وينبغي القول بأن استحضار حالة التمايز هذه لا يستلزم على الإطلاق حالة القطيعة المعرفية مع الحضارات الأخرى، بل على العكس يمكن اعتباره شرطًا من شروط التفاعل الحضاري؛ حيث "يُعَدُّ تصور أية مجموعة حضارية لذاتها ولغيرها من المجموعات الحضارية الأخرى عاملًا أساسيًّا في تحديد مسار التفاعل الحضاري."[٢]

- وضع الحضارة الغربية في موضعها الصحيح دون تنكر لما أبدعه العقل الغربي منطلقًا من السنن الإنسانية العامة التي أُقيمت عليها الحياة وفي الوقت ذاته دون قبول الادعاء الغربي ببلوغها نهاية الترقي الإنساني؛ لأن ذلك بالغ الخطورة على رؤيتنا لذاتنا، "فإذا استقرت في أذهاننا فكرة تؤكد عظمة الحضارة الغربية وأننا جزء من الغرب، وأن مستقبل ثقافتنا يجب أن يستقبل الغرب كقبلة نرضاها أصبحت أفئدتنا مستعدةً لاستقبال سيل عظيم من الأفكار الجديدة التي سوف تطرد في طريقها لا محالة كثيرًا مما استقر فيها من أفكار."[٣]
- الانطلاق مرة أخرى من الوحي الإلهي انطلاقًا واعيًا بامتداداته المتنوعة حيث إن "معيار الوحي هو المدخل الوحيد لدراسة مشكلات وقضايا الفكر

---

(١) مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مالك بن نبي، ترجمة: بسام بركة، أحمد شعبو، صـ ١٨، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، طـ١(١٩٩٨م).

(٢) تكامل الحضارات بين الإشكاليات والإمكانيات، عطا محمد حسن، صـ٩٦، سلسلة الأمة عدد (١٦١).

(٣) مقدمات في مشاريع البعث الحضاري، د. سيد دسوقي حسن صـ١٨، دار القلم، الكويت، طـ١(١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م).

الإسلامي؛ إذ لا تجدي الطريقة العلمية الحديثة شيئًا في استكناه خبايا الظواهر الإسلامية ومغازيها الحقيقية وأبعادها الجوهرية التي لا يمكن فهمها إلا في ضوء معيار الوحي."[١]

إن هذين الدافعين أعني الذاتي والخارجي لقراءة قضايانا الإسلامية عامة والكبرى منها خاصة في سياق حضاري ينطبق لا محالة على قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باعتبارها من أعظم قضايا الإسلام كما قال الإمام الغزالي قولته الشهيرة:

"إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طُوِيَ بساطه، وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمَّت الفترة[٢]، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد."[٣]

إن مجيئ هذا الكلام على لسان صاحب المشروع الإحيائي لعلوم الدين ينبغي أن تكون له دلالته، وأن يرفع من حالة تعلقنا بهذه القضية ليس تعلقا وجدانيًّا فحسب، بل بالأساس تعلقًّا فكريًّا حضاريًّا، وهذا ما نحاول فعله في هذا البحث.

(١) معيار الوحي في الفكر الإسلامي، عبد المجيد مكين، ندوة عقدت باليابان عن قضايا الحضارة الإسلامية واليابان، طوكيو (٢٠ – ٣٠ مارس ١٩٨٠م).

(٢) الفترة: الانكسار والضعف. (لسان العرب، ابن منظور جـ ٥صـ٤٣).

(٣) إحياء علوم الدين، جـ٢صـ٣٠٦، (إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، دار المعرفة، بيروت).

المطلب الأول

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحقيق التهذيب الذاتي

إن الحضارة التي يريدها الإسلام هي تلك الحضارة المنطلقة من رؤيته العامة للإنسان، ولا شكَّ أن من مفردات هذه الرؤية ما يلي:

- طبيعة الإنسان التي طُبع عليها من تقلب أحواله ما بين العلم والجهل والصواب والخطأ والتيقظ والغفلة...إلخ.

يقول الشيخ رشيد رضا: "الإنسان عرضة للخطأ والخطل، ولا يكاد يخلو عمل من خلل، وتشهد بذلك كتب المؤلفين، وأعمال المتقدمين والمتأخرين، **(وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً)**[1]، يخطئ قوم فيصلح خطأهم آخرون، وبذلك تتجلي الحقائق، وتتمحص العلوم، حتى تبلغ كمالها."[2]

- **تَكَوُّن طبيعته من مكونين متنازعين:** "فالفرد يتكون من جانبين متقابلين أو متنازعين، يتكون من الإيمان الذي يوحي إليه بالاعتدال، ومن الهوى الذي يوحي إليه بالتطرف، قال تعالى: **(وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ)**[3]، ويتكون من وجدان وعقل، ومن هوى وإيمان، ومن روح وجسم كل منهما يتجه إلى مصدره، الروح إلى الملأ الأعلى، والجسم إلى الأرض، فالإسلام يدعو إلى التوفيق بين شطري الإنسان، ثم يعد الإنسان بهذا التسامي أن يكون في بوتقة الجماعة."[4]

---

(١) سورة النساء آية رقم (٨٢).

(٢) مجلة المنار، مقال بعنوان: النميمة والسعاية، جـ ١صـ٢٣٦، (صفر - ١٣١٦هـ - يونيو - ١٨٩٨م).

(٣) سورة البلد آية رقم (١٠).

(٤) عطاء الإسلام الحضاري، أنور الجندي، صـ ٦٨، سلسلة دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي عدد(١٦٣)، رجب (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م).

- **أن الإنسان بجميع مكوناته قابل للتهذيب**

"اعلم أننا إذا تأملنا في الإنسان من حيث ناطقيته وعظيم بنيته وبما أودعه الله به من سر القوى العقلية والصفات البشرية وجدناه قابلًا للتربية، مائلًا بالطبع للتعزز على ما عداه من جميع الحيوان، متسلطًا بصفة إدركاته العقلية على المواليد الحيوانية والنباتية والمعدنية، محبًّا للتأنيس والاجتماعات البشرية ليدفع بها غوائل من عداه ويأمن على نفسه."(١)

ولم يترك الإسلام في بنائه الحضاري هذا الإنسان متخبطًا في الاستجابة لشهواته ونزعاته، بل أوجد له آليات تحفظ له حالة التهذيب ليكون هذا التهذيب لازمًا من لوازم انتظام الحياة الإنسانية أي لازما من لوازم التحضر.

"إذا كان انتظام أمر الحياة معلولًا لتهذيب الأخلاق، فبالضرورة يكون وجوده بوجود علته، وعدمه لعدمها، إذ لا معنى لكونه معلولًا إلا هذا، ومن هنا نفهم السر في اختلال معيشة الأفراد وانتظامها، وانفصام عرى الاتحاد بين الجماعات والتئامها، وصعود بعض الأمم أعلى درج الارتقاء وهبوط بعضها إلى أسفل درك الانحطاط ووقوف البعض بين بين، تتنازعه عوامل العلتين، حتى يأتي أمر الله، واعتبِر ذلك في سير الإنسان من يوم عُلِم تاريخه إلى الآن تَلْقَه صحيحًا مطَّردًا."(٢)

وقد ربط القرآن الكريم بين تحقيق حالة التهذيب وبين تحصيل أدوات الحضارة في قوله تعالى: (ولَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ).(٣)

---

(١) البيان في التمدن وأسباب العمران، رفيق العظم، تقديم: عبد الرحمن حللي، صـ ١٣، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني مكتبة الأسكندرية (١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٢).

(٢) مجلة المنار، مقال بعنوان: في بيان أن سعادة الأمة في التهذيب، (ذو القعدة – ١٣١٥هـ، مارس – ١٨٩٨م)، جـ١صـ٦٩.

(٣) سورة الأعراف آية رقم (٩٦).

إن معنى وصفهم بالتقوى هنا أنهم "اتقوا أسباب الانحراف في الأعمال والأفكار الضارة التي تؤدي إلى مآل السقوط الحضاري، أو الهلاك المادي وذهاب الريح بذهاب البأس."(١)

إن هذا يعني أن من شروط البناء الحضاري الذي أراده الإسلام شيوع حالة من التهذيب متمثلة في اتقاء أسباب الانحراف.

ومن الملاحظ أن التقوى بهذا المفهوم التهذيبي الشامل لا تُستحضر كثيرًا كسنة من سنن البناء الحضاري "وإذا كان معروفًا لدى أكثر المفكرين والمؤرخين والمربين والوعاظ أن الظلم مؤذن بخراب الأمم، فإنه يبدو غير معروف بالقدر ذاته لدى أكثرهم أن التقوى عامل بناء حضاري قد يكون أقوى من الظلم كعامل هدم."(٢)

إن معنى ما مضى أن هناك علاقةً جذريةً بين البناء التهذيبي الذاتي والبناء الحضاري، تلك العلاقة يمكن صياغتها في قاعدة عامة وهي:

"أي تغيير ناجح في عالم الشهادة لإحداث التحضر أو استعادته لا بد أن يبدأ من تغيير ما بالأنفس."(٣)

---

(١) سنن التداول ومآلات الحضارة، د. محمد هيشور صـ ٢٩٥، سلسلة (روافد)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية إصدار(٦١) يناير (٢٠١٣م).

(٢) المرجع السابق صـ ٢٦٢.

(٣) الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية، دراسة مقارنة، د. عبد الله محمد الأمين، صـ٩٦، العدد (١٥٣) المحرم (١٤٣٤هـ)، السنة الثالثة والثلاثون، إدارة البحوث والدراسات الإسلامية بقطر.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومسالك التهذيب الذاتي

إذا كان التهذيب الذاتي هو الانطلاقة الحقيقية لأي بناء حضاري، فإن المنهج الإسلامي اتخذ عدة سبل لتحقيق هذا التهذيب، ويأتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليمثل إحدى أعظم هذه السبل، وذلك من خلال عدة مسالك:

المسلك الأول: أن الإسلام أكَّد على العلاقة بين أمر الآمر بالمعروف وائتماره بما يأمر، ونَهْيِ الناهي عن المنكر وانتهائه عما ينهى، وذخرت أصوله بتأسيس هذه العلاقة مما حدا ببعض العلماء أن يجعلها من الشروط، ورغم أن المحققين على خلاف ذلك [1] إلا أن الجميع متفق على ضرورة الانسجام بين المسيرة الذاتية للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر وما يقوم به من الأمر والنهي.

إن معنى هذا أن المسلم حتى يقوم بحق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد أن يقوم بحركة ذاتية لإصلاح ذاته؛ ليكون أهلًا للاضطلاع بهذا الواجب، وهذا يعني بدوره أن الإسلام جعلهما حلقتين متصلتين، فالتهذيب الذاتي يدفع نحو مسؤولية الأمر والنهي، وهو في الوقت ذاته ضرورة من ضروراته، وذلك استنادًا إلى النصوص المتكاثرة ومن أوضحها دلالةً قوله تعالى: **{أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤)}**[2].

إن هذا النص القرآني لم يكشف عن وجود حالة من الانفصال بين التهذيب الذاتي والسعي في التهذيب المتعدي فحسب، بل كشف كذلك أن هذا الانفصال مصادم لمقتضيات العقل.

---

(١) أورد الإمام الغزالي رأي من اشترط العدالة في القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذكر أدلتهم، وناقشها ثم رجح أنه ليس شرطًا. انظر: (إحياء علوم الدين جـ ٢صـ٣١٣ (مرجع سابق).

(٢) سورة البقرة، آية رقم (٤٤).

يقول الرازي: "وأما قوله: **(أفلا تعقلون)**[1] فهو تعجب للعقلاء من أفعالهم، ونظيره قوله تعالى: **(أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ)**[2]، وسبب التعجب وجوه:

الأول: أن المقصود من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إرشاد الغير إلى تحصيل المصلحة وتحذيره عما يوقعه في المفسدة، والإحسان إلى النفس أولى من الإحسان إلى الغير، وذلك معلوم بشواهد العقل والنقل، فمن وعظ ولم يتعظ فكأنه أتى بفعل متناقض لا يقبله العقل؛ فلهذا قال: **(أفلا تعقلون)**.

الثاني: أن من وعظ الناس، وأظهر علمه للخلق ثم لم يتعظ صار ذلك الوعظ سببًا لرغبة الناس في المعصية؛ لأن الناس يقولون: إنه مع هذا العلم لولا أنه مطلع على أنه لا أصل لهذه التخويفات وإلا لما أقدم على المعصية فيصير هذا داعيًا لهم إلى التهاون بالدين والجراءة على المعصية، فإذا كان غرض الواعظ الزجر عن المعصية ثم أتى بفعل يوجب الجراءة على المعصية فكأنه جمع بين المتناقضين، وذلك لا يليق بأفعال العقلاء، فلهذا قال: **(أفلا تعقلون)**.

الثالث: أن من وعظ فلا بد وأن يجتهد في أن يصير وعظه نافذًا في القلوب. والإقدام على المعصية مما ينفر القلوب عن القبول، فمن وعظ كان غرضه أن يصير وعظه مؤثرًا في القلوب، ومن عصى كان غرضه أن لا يصير وعظه مؤثرًا في القلوب. فالجمع بينهما متناقض غير لائق بالعقلاء."[3]

---

(١) سورة البقرة، آية رقم (٤٤).

(٢) سورة الأنبياء آية رقم (٦٧).

(٣) تفسير الرازي جـ ٣صـ٤٨٨ (مفاتيح الغيب، أو التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، خطيب الري، دار إحياء التراث العربي، بيروت طـ٣، (١٤٢٠ هـ).

إن هذا المسلك يستتبع حالة من حالات التيقظ المستمرة والتي يراقب الإنسان من خلالها ثلاثيته المكونة من القناعات والأقوال والأعمال، والتي عبر عنها الهدي النبوي بحالة الإدانة، فعن أبي يعلى شداد بن أوس، قال: قال رسول الله (ﷺ): «الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز: من أتبع نفسه هواها، ثم تمنى على الله.»[1]

إن المراد من إدانة الإنسان نفسه هنا دخوله في حالة من التبصر لأحوالها تمهيدًا للإصلاح والتهذيب الذاتي؛ لذا جاء في معنى دان نفسه: "أي: حاسب أعمالها، وأحوالها وأقوالها في الدنيا، فإن كانت خيرًا حمد الله تعالى، وإن كانت شرًّا تاب منها، واستدرك ما فاتها قبل أن يُحاسب في العقبى."[2]

إن السعي في هذا التهذيب الذاتي هو سعي في تحصيل الاستحقاق للقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛لذا فقد كان الأنبياء والرسل (عليهم السلام) باعتبارهم القدوة الكبرى في تحصيل هذا الاستحقاق القدوة الكبرى في كمال التهذيب الذاتي لكن معناه لديهم يأخذ مفهوم العصمة كما يقول الشاطبي:

"وقد قالوا في عصمة الأنبياء قبل النبوة من الجهل بالله وعبادة غير الله: إن ذلك؛ لأن القلوب تنفر عمن كانت هذه سبيله، وهذا المعنى جارٍ من باب أولى

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله (ﷺ)، جـ٤صـ٦٣٨ رقم (٢٤٥٩)، وقال:هذا حديث حسن. (سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر وآخرين، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢(١٣٩٥هـ-١٩٧٥م).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري، جـ٨صـ٣٣١٠، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط١(١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م).

فيما بعد النبوة، بالنسبة إلى فروع الملة فضلًا عن أصولها؛ فإنهم لو كانوا آمرين بالمعروف ولا يفعلونه، وناهين عن المنكر ويأتونه -عياذًا بالله من ذلك- لكان ذلك أولى مُنَفر وأقرب صاد عن الاتباع؛ فمن كان في رتبة الوارثة لهم؛ فمن حقيقة نيله الرتبة ظهور الفعل على مصداق القول."[١]

المسلك الثاني: أننا رأينا كثيرًا من النصوص تضع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضمن صلاح ذاتي عام يتضمن تحصيل العديد من أصول الإيمان والعبادات كقوله تعالى: **(التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ الْحامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ)**[٢].

وقوله تعالى: **{لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤)}**[٣] **وفي السنة النبوية جاء قوله (ﷺ):** خير الناس أقرؤهم، وأتقاهم، وآمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأوصلهم للرحم.[٤]

---

(١) الموافقات، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، جـ٥صـ٢٧٠، دار ابن عفان، طـ١(١٤١٧هـ - ١٩٩٧م).

(٢) سورة التوبة آية رقم (١١٢).

(٣) سورة آل عمران الآيتان رقم (١١٣، ١١٤).

(٤) أخرجه الإمام احمد في مسنده، مسند القبائل، حديث درة بنت أبي لهب، جـ٤٥ صـ٤٢١ رقم (٢٧٤٣٤)، وقال الهيثمي: رجاله ثقات، وفي بعضهم كلام لا يضر (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، تحقيق: حسام الدين القدسي، جـ٧صـ ٢٦٣ رقم (١٢١١٤)، مكتبة القدسي، القاهرة(١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م).

إننا نرى في هذه النصوص طائفةً من مفردات الصلاح الذاتي التي يتغياها الإسلام مقرونةً بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتعطينا هذه النصوص دلالةً على مدى الارتباط بين الصلاح الذاتي وهذه الفريضة.

إن معنى هذا أن الإسلام جعل القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خطوة مكملة لخطوة قبلها وهي الصلاح الذاتي، أي إن القيام بهذه الفريضة كما ينبغي هو ضمان لارتفاع كم وكيف الإصلاح الذاتي؛ لذلك فقد جاء قوله تعالى: {**يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ (١٧)**}[١] بعد جملة من الوصايا المنصبة على الإصلاح الذاتي؛ لذا يقول الرازي: "أي إذا كملت أنت في نفسك بعبادة الله فكَمِّل غيرك، فإن شغل الأنبياء وورثتهم من العلماء هو أن يَكْمُلوا في أنفسهم، ويُكملوا غيرهم."[٢]

بل إننا يمكننا رؤية هذا التهذيب في حد ذاته على أنه صورة من صور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكن بالحال وليس بالمقال لأن "من تصدّق بنفسه على طاعة ربه، وتصدّق بقلبه على الرضا بحكمه، ولم يخرج بالانتقام لنفسه، وحثّ الناس على ما فيه نجاتهم بالهداية إلى ربه، وأصلح بين الناس بصدقه في حاله؛ فإنّ لسان فعله أبلغ في الوعظ من لسان نطقه، فهو الصّديق في وقته. ومن لم يؤدّب نفسه لم يتأدب به غيره، وكذلك من لم يهذّب حاله لم يتهذّب به غيره.."[٣]

---

(١) سورة لقمان آية رقم (١٧).

(٢) تفسير الرازي جـ ٢٥ صـ ١٢١ (مرجع سابق).

(٣) لطائف الإشارات (تفسير القشيري) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، جـ١صـ٣٦٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، طـ٣.

في ضوء هذا نفهم قوله تعالى: **(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)**[1] حيث إن هذه الآية الكريمة جعلت من لوازم سنة التغيير الخارجي للأقوام والأمم البدء بالتغيير الداخلي المتعلق بميدان الأنفس.

إن هذه هي طريقة القرآن في إحداث حالة من الترابط بين حالتي الإصلاح الذاتي الفردي والإصلاح الجمعي بحيث يحل القرآن بذلك واحدة من أكبر إشكاليات الفكر الإنساني، وهي إشكالية العلاقة بين الفرد والمجتمع، والتي أنتجت مذاهب فكرية متصارعة في الانتصار لأي منهما.

إننا إذا أردنا أن نصوغ العلاقة بين التغيير الذاتي والتغيير الخارجي العام لقلنا إن "التغيير الداخلي مقدمة ضرورية للتغيير الخارجي الذي ينعكس على سعي الإنسان في تحريك للحياة وفق مراد الله في أمره ونهيه."[2]

المسلك الثالث: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما هو في الرؤية الإسلامية يفتح المجال أمام النفس الإنسانية للبقاء على جادة الصواب فكرًا ونطقًا وسلوكًا؛ ذلك لأن شمول المعروف لكل ما ينبغي، والمنكر لكل ما لا ينبغي يعطي ضماناً لهذه النفس أن تبقى في مجال الحق والصواب.

إنه يجعل أمامها طائفة من المثل العليا التي تتغياها في عملية التهذيب الذاتي وتنعكس على حركة التمدن العامة؛ فإنه "لولا تأثير المثل العليا ما تمدين الإنسان، ولظل في دور الهمجية، ويبدأ دور انحطاط الأمة حينما تعود عاطلةً من مثل عال محترم يستعد كل واحد من أبنائها لوقف نفسه عليها."[3]

---

(١) سورة الرعد آية رقم (١١).

(٢) قيم الإسلام الحضارية، نحو إنسانية جديدة، د. محمد عبد الفتاح الخطيب، تقديم: عمر عبيد حسنه، سلسلة كتاب الأمة، السنة الثلاثون، العدد (٣٩) رمضان ١٤٣١هـ صـ٥٣، إدارة الدراسات الإسلامية والبحوث، قطر.

(٣) حضارة العرب، جوستاف لوبون صـ٦٢٩، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة (٢٠١٢م).

إن المعروف الذي هو محل للأمر، والمنكر الذي هو محل للنهي يمثلان في الحقيقة مسارات متناقضة للسير الإنساني؛لذا كان إقرار المعروف والنهي عن المنكر جوهر الرسالة النبوية.

"واعلم أنه (ﷺ) ما بُعث إلا لهذين الأمرين، وهو الإنذار على فعل ما لا ينبغي، والبشارة على فعل ما ينبغي."(١)

وجاء عن ابن عباس (رضي الله عنهما) في قصة إسلام أبي ذر (رضي الله عنه) أنه حين بلغه خروج رجل بمكة يزعم أنه نبي. أرسل أخاه فقال: اذهب فأتني بخبر هذا الرجل وبما تسمع منه. فانطلق الرجل حتى أتى مكة فسمع من رسول الله (ﷺ) فرجع إلى أبي ذر، فأخبره أنه يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويأمر بمكارم الأخلاق.(٢)

إن دخول المسلم ضمن دائرة المعروف وسيره في تضاد دائرة المنكر فيه إكمال لأوجه الإصلاح الإنساني، واستكمال ما لدى الإنسان من حكمة، والتنبيه على ما لديه من قصور.

"طريقة الإسلام في الإعلاء لنوازع الإنسان ودوافعه تقوم على أساس وضع معايير وأهداف عليا للحياة الإنسانية وتكوين الإدارة القوية للإنسان. وهي عملية تدريب على الضبط الإداري للإنسان وتحكمه في شهواته وبواعث الهوى لديه والتحكم في عواطفه ومشاعره بقوة الإرادة.(٣)

---

(١) تفسير الرازي جـ ١٧صـ٣١٥.

(٢) الطبقات الكبرى، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع المعروف بابن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، جـ ٤صـ١٦٩، دار الكتب العلمية – بيروت، طـ١(١٤١٠هـ – ١٩٩٠م).

(٣) التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، محمد منير مرسي، صـ٧٢، عالم الكتب (١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م).

وحاجة الإنسان إلى الدلالة على الحكمة والتنبيه إلى مواطن الخلل إحدى خصائص الجنس الإنساني كما نبَّه عليه الإسلام، فعن أنس (ﷺ) قال: قال رسول الله (ﷺ): «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون.»(١)

المسلك الرابع: أن وقوع الإنسان تحت دائرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينعكس أول ما ينعكس على حالة التهذيب الذاتي التي أرادها الإسلام؛ لأن المعروف الذي يُؤمر به هو حالة من حالات الكمال النفسي، والمنكر الذي يُنهى عنه هو حالة من حالات التدني النفسي الذي حاربه الإسلام.

إننا في سياق هذا نفهم كيف أن السابقين من الصحابة والتابعين كانوا يلجون هذا الباب من أبواب التهذيب الذاتي حتى قال الحسن (رحمه الله): المسلم أخو المسلم يبصره عيوبه، ويغفر له ذنوبه. كان من قبلكم من السلف الصالح يلقى الرجل فيقول: يا أخي، ما كل ذنوبي أبصر، ولا كل عيوبي أعرف، فإذا رأيت خيرًا فمرني، وإذا رأيت شرًّا فانهني."(٢)

وقال الإمام أحمد: لا نزال بخير ما كان في الناس من ينكر علينا."(٣)

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، ك: الزهد، باب ذكر التوبة، جـ٢صـ١٤٢٠ رقم (٤٢٥١) (سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت بدون.

(٢) الكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي داود الحنبلي الدمشقي الصالحي، تحقيق: د. مصطفى عثمان صميدة، جـ٣صـ ٢٧٤، دار الكتب العلمية، بيروت، طـ١(١٤١٧هـ – ١٩٩٦م).

(٢) سورة لقمان آية رقم (١٧).

(٣) الكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عبد الرحمن بن أبي بكر الحنبلي، جـ٣صـ ٢٧٤ (مرجع سابق).

إن معنى هذا أنه كان هناك سعي من قِبَلِ هؤلاء السابقين إلى وضع أنفسهم في محل الأمر والنهي ليفتحوا بذلك لأنفسهم بابًا من أبواب التبصر، وبالتالي بابًا من أبواب التهذيب الذاتي خاصة وأن طبيعة هذا التهذيب الذي أراده الإسلام ليس تهذيبًا انعزاليًّا يتم بعيدًا عن الحياة، بل إنه متشابك معها.

"ميدان الذات وتزكيتها أكبر من ذلك بكثير، إنه الحياة بكل ما فيها من جوانب الخير والشر، إنها التربية الميدانية التي لا تتم إلا من خلال الممارسة والمعايشة الاجتماعية والمعاناة اليومية والتحديات المحيطة واستشعار هذه التحديات وعدم الذوبان والسقوط أمامها، وإنما الصلابة والاستيعاب وحسن المواجهة وإن اختلفت فيها مساحة الكر والفر حسب الظروف ومقتضى الحال؛ ذلك أن التربية الذاتية أو العكوف على تربية الذات بهذا المعنى هو الذي تفرد به الإسلام عن سائر الأديان."(١)

وليس الشأن في مجرد قابلية الإنسان للإئتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر، بل إن الشأن في تلقيه لهذه الأوامر والنواهي بحالة من الوعي؛ ذلك لأن "الشر شهوة والخير كراهية، والشهوة سابقة على الكراهية، وغالبة عليها حتى يجيء العلم والصدق، فيزيلان الشهوة، ويجعلان الكراهة مكانها، فمن لم يفقه، ولم يفهم هذا حين يسمعه لم يُحسن مراجعة سريرته، ولا يجيء على اصلاحها حتى يتعلمه ممن يحسنه ويحسن وصفه."(٢)

---

(١) نظرات في مسيرة العمل الإسلامي، عمر عبيد حسنه صـ٨١، مؤسسة الرسالة (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م).

(٢) آداب النفوس، الحارث بن أسد المحاسبي، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، صـ١٦٩، دار الجيل – بيروت، لبنان، بدون.

ومن هنا نفهم التوجيه النبوي المتمثل في قوله (ﷺ): «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا، أفرأيت إذا كان ظالمًا كيف أنصره؟ قال: «تحجزه، أو تمنعه، من الظلم فإن ذلك نصره.»(١)

إن هذا التوجيه النبوي يخلق وعيًا إنسانيًّا بحقيقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويوجد حالة من حالات التقبل له باعتباره وسيلة من وسائل تحقيق الصلاح الإنساني، هذا الصلاح الذي قد تعترضه نزعة من نزعات العصبية أو غضبة تذهب معها معالم الرشد.

المسلك الخامس: أن الإسلام في توجيهه أتباعه للقيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جعلهم كالنفس الواحدة؛ ليكون ذلك بمثابة الحافز على ائتمارهم بالمعروف وانتهائهم عن المنكر؛ لأن كل إنسان سيشعر حينها أنه في حقيقة الأمر يأمر نفسه وينهاها فيسهل تقبله لذلك، ويتدرج بالتالي في مراقي التهذيب الذاتي؛ لذا أتى التعبير في بعض الأحاديث بكلمة (المرءآة) فعن أبي هريرة، عن رسول الله (ﷺ) قال: «المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن، يكف عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه.»(٢)

إن معنى هذا أن "كلّ واحد منهما عون لصاحبه في أمر الدنيا والآخرة كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وكالمرآة له في توقيفه إياه على عيوبه ونصيحته له

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، ك: الإكراه، باب (بدون ترجمة) جـ٩صـ٢٢ رقم (٦٩٥٢) (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله (ﷺ)، وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، طـ١، (١٤٢٢هـ).

(٢) أخرجه أبو داود، ك: الأدب، باب في النصيحة والحياطة جـ٤صـ٢٨٠ رقم (٤٩١٨).

في المشهد والمغيب، وتعريفه إياه ما فيه خطؤه، ومافيه صلاحه مما يخفى عليه."[1]

إن هذه التوجيهات النبوية تضع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في سياق من الواجبات الاجتماعية التي يقوم عليها المجتمع المسلم، والتي جعلها الإسلام أساسًا من أسس الترابط الاجتماعي بين الأفراد.

(١) شرح صحيح البخاري، ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، جـ ٩صـ٢٣٧، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض، طـ٢ (١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م).

المطلب الثاني
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
وتحقيق مقتضيات التكريم الإنساني

إن ما نريد أن نتوصل إليه في هذا المطلب ثلاثة أمور، وهي:

الأمر الأول: الكشف عن العلاقة بين التكريم والرؤية الحضارية الإسلامية.

الأمر الثاني: بيان مفردات هذا التكريم، ومحاولة التوصل إلى الأطر العامة التي يمكن أن تُسلك فيها.

الأمر الثالث: إظهار العلاقة بين هذه الأطر والقيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أما بخصوص العلاقة بين التكريم والرؤية الحضارية الإسلامية. فإن التكريم الإلهي للإنسان يمثل إحدى أبرز دعائم هذه الرؤية؛ ذلك لأن الحضارة التي ينشدها الإسلام حضارةٌ إنسانية تنطلق من كل مقومات الهوية الإنسانية، والتكريم الإلهي للإنسان مرتبط ارتباطًا مباشرًا بجوهر هذا الإنسان وحقيقة وجوده في هذه الحياة.

"الإسلام يقرر وضعًا للإنسان يختلف عن مفهوم الغرب أو المذاهب الأخرى، فهو يُكَرِّمُ الإنسان، ويجعله مستخلَفًا على العمران في ضوء الإيمان بالله تبارك وتعالى والتحرك في دائرة الاستخلاف ليكون عطاء الدنيا عامًّا للبشرية كلها وليس قاصرًا على جانب منها."(١)

من هنا ليس عجبًا أن تكون أوضح النصوص القرآنية المُبَيِّنة لمرتكز التكريم مرتبِطةً بالحركة الحضارية للإنسان ونتاجه الممتد في آفاق البر والبحر،

(١) عطاء الإسلام الحضاري، أنور الجندي، صـ١٥ (مرجع سابق).

ومُلمحة إلى مستلزمات هذا النتاج، وأقصد بهذا النص قوله تعالى: {**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠)**}[١].

إن تأصيل النص القرآني لقضية التكريم لم يأت في سياق منفصل عن حركة تحضره في الحياة وسعيه برًا وبحرًا وتحركه مستغلًّا ما سُخِّر له من الطيبات.

وأما بخصوص مفردات هذا التكريم فيمكن أن نستضيء في هذا بقول الإمام الرازي: "اعلم أن الإنسان جوهر مركب من النفس، والبدن، فالنفس الإنسانية أشرف النفوس الموجودة في العالم السفلي، وبدنه أشرف الأجسام الموجودة في العالم السفلي.

وتقرير هذه الفضيلة في النفس الإنسانية هي أن النفس الإنسانية قواها الأصلية ثلاث. وهي الاغتذاء والنمو والتوليد، والنفس الحيوانية لها قوتان: الحسَّاسة سواء كانت ظاهرة أو باطنة، والحركة بالاختيار، فهذه القوى الخمسة أعني الاغتذاء والنمو والتوليد والحس والحركة حاصلة للنفس الإنسانية، ثم إن النفس الإنسانية مختصة بقوة أخرى، وهي القوة العاقلة المُدْرِكة لحقائق الأشياء كما هي. وهي التي يتجلى فيها نور معرفة الله تعالى، ويُشرق فيها ضوء كبريائه."[٢]

إننا لو حلَّلنا كلام الرازي لوجدنا أن دائرة التكريم الإلهي للإنسان قد امتدت حتى حَوَتْ كلًّا من مكونيه المادي والروحي.

ويأتي ابن عاشور ليُدلي بدلوه حول مفردات هذا التكريم وموقعه من سلم التفاضل بين الإنسان وغيره من المخلوقات فيقول:

---

(١) سورة الإسراء: آية رقم (٧٠).

(٢) تفسير الرازي جـ ٢١صـ٣٧٢.

"**والتكريم:** جعله كريمًا، أي نفيسًا غير مبذول ولا ذليل في صورته، ولا في حركة مشيه، وفي بشرته، فإن جميع الحيوان لا يعرف النظافة ولا اللباس ولا ترفيه المضجع والمأكل، ولا حسن كيفية تناول الطعام والشراب، ولا الاستعداد لما ينفعه ودفع ما يضره، ولا شعوره بما في ذاته وعقله من المحاسن فيستزيد منها والقبائح فيسترها ويدفعها، بله الخلو عن المعارف والصنائع وعن قبول التطور في أساليب حياته وحضارته."(١)

إن هذه المفردات التي تمثل مفهوم التكريم هي بذاتها منطلقات الإنسان في حركة تحضره، فهو ينطلق من روح متوثبة نحو الكمال الإنساني، وجسد ممهد للحركة في الأرض والتعمير فيها.

إننا لو استقرأنا مفردات التكريم التي أشار إليها العلماء فيما مضى لوجدنا أنه يمكن ردها إجمالًا إلى إطارين عامين:

الإطار الأول: القوى والملكات الباطنية.

الإطار الثاني: الصورة الظاهرية.

وأما عن دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في تحقيق هذين الإطارين فيمكن أن نسلكه في النقطتين التاليتين:

النقطة الأولى: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحقيق القوى الباطنية للتكريم

إذا كان الإطار الباطني للتكريم الإنساني هو لب هذا التكريم وجوهره الحقيقي، فإن هناك مفردات لهذا التكريم يمكن ردها إجمالاً إلى الملكة الروحية،

(١) التحرير والتنوير جـ١٥صـ١٦٥ (تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس (١٩٨٤ هـ).

والنفسية، والعلمية والبيانية، وحتى نجلي العلاقة بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذا الإطار الباطني للتكريم ينبغي رؤية هذه العلاقة في مفرداته، وذلك على النحو التالي:

(أ) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقوة الروحية

لقد تمثل الجانب الروحي الذي مُيِّز به الإنسان، في تلك النفخة الإلهية التي أشار إليها قوله تعالى: **(وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي)**[1].

يقول النيسابوري: "إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ، وذلك أن الله تعالى خلق العالمين سبعة أنواع: الجماد والمعدن والنبات والحيوان والنفوس والعقول والأرواح، وجمع في آدم جميع الأنواع، وخصَّه بتشريف ثامن هو تشريف **(وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي)**[2]، فهو المُظهِر لجميع آياته وصفاته وذاته."[3]

وإذا كانت النفخة الروحية أعظم قوى الإنسان الباطنية التي نال بها منزلة التكريم الإلهي فإن تَمَثُّل الإنسان بها، وجَعْل هذه النفخة هي المهيمنة على جانبه الحيواني المتمثل في غرائزه وشهواته إعلانٌ عن تحقق هذه المفردة الأعظم من مفردات التكريم، ومن هنا يأتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليكون سبيلًا من سبل التمثل الإنساني بمقتضيات هذه النفخة الروحية.

إن أعظم دوائر المعروف ما يوطد تلك الصلة الروحية وينمي إطارها، وأعظم دوائر المنكر ما يقطع هذه الصلة ويمحو آثارها؛ وقد رأينا ذلك جليًّا في نصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) سورة الحجر آية (٢٩).

(٢) المصدر السابق آية رقم (٢٩).

(٣) تفسير النيسابوري جـ٢صـ ١٤٧ (غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، طـ١(١٤١٦ هـ).

فالصلاة باعتبارها الرابطة الروحية العظمى تقع في أولى دوائر المعروف الذي يُؤمر به، ففي مفردات الأمر بالمعروف لدى نبي الله إسماعيل (عليه السلام) تأتي الصلاة {**وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥)**}[١].

وفي التوجيه الإلهي للنبي (ﷺ) بالقيام بالأمر بالمعروف تأتي الصلاة {**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢)**}[٢].

وفي الأوامر اللقمانية التي تُعَدُّ موردًا من موارد الحكمة القرآنية تأتي الصلاة كذلك (يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ)[٣].

ويأتي تدعيم هذه الصلة الروحية ليكون مقصدًا من مقاصد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قوله (ﷺ): «إني لأعرف ناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء بمنزلتهم يوم القيامة، الذين يحبون الله، ويحببونه إلى خلقه، يأمرونهم بطاعة الله، فإذا أطاعوا الله أحبهم الله.»[٤]

لقد بيَّن هذا النص النبوي أن الأمر بطاعة الله هو السبيل لتوطيد الصلة بين المخلوق والخالق، ومن ثم تمثل الإنسان بمقتضى عظيم من مقتضيات تكريمه وهو النفخة الروحية.

---

(١) سورة مريم آية رقم (٥٥).

(٢) سورة طه آية رقم (١٣٢).

(٣) سورة لقمان آية رقم (١٧).

(٤) كشف الأستار عن زوائد البزار، ك: العلم، باب فضل العالم والمتعلم جـ١صـ ٨٥ رقم (١٣٩) (كشف الأستار عن زوائد البزار، نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، طـ١(١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)

وتأتي تطبيقات الأمة لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتتوجه إلى هذه الغاية بعينها كما جاء عن الإمام أحمد أنه صلى يومًا إلى جنب رجل لا يتم الركوع ولا السجود، فقال: «يا هذا، أَقِمْ صلبك في الركوع والسجود، وأحسن صلاتك.(١)

بل إن انقطاع الصلة الروحية وتغلب الجانب البهيمي من الإنسان على نفخته الروحية نتيجة من نتائج ترك هذه الفريضة، فالقرآن الكريم بعد أن عرض سبيل القائمين بمهة الدعوة من الأنبياء والمرسلين ذكر أنه قد حلَّ بالإنسانية جيل تنكبوا هذا السبيل، وتنكروا لجوهره {**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩)**}(٢).

إن إضاعة الصلاة واتباع الشهوات تعبير قرآني جلي عن صورة إنسانية فاقدة لمعالم النفخة الروحية، وبالتالي فاقدة لركن ركين من أركان تكريمها.

وتأتي نصوص أخرى لترصد لنا حالة الإنسان حين يُغلق على نفسه كل منافذ التلقي لسبل الإصلاح والائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر.

إنها الحالة التي يبرز فيها هذا الإنسان وقد فقد المُقَوِّم الأعظم من مقومات تكريمه وهو المقوم الروحي حتى تمحضت فيه الحيوانية كما قال تعالى: {**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)**}(٣).

---

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخَلَّال، تحقيق: الدكتور يحيى مراد صـ٤٣، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، طـ١(١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م).

(٢) سورة مريم آية رقم (٥٩).

(٣) سورة الأعراف، آية رقم (١٧٩).

وليس السبيل لرؤية العلاقة بين كلٍّ من القيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحقيق مفردات التكريم قاصرًا على تصور الوضع الإنساني حالة القيام بهذه الفريضة، بل كذلك تصوره حالة التنكر لهذه الفريضة وهو ما يبينه لنا الشيخ رشيد رضا بقوله:

"فكان إرشاد الوحي سببًا لكل ارتقاء إنساني، في رُكْنَي وجوده الجسماني والروحاني، وقد فُتن في هذا العصر خلق كثير بترقي النظام الاجتماعي، وسعة التمتع الشهواني في شعوب كانت قد استفادت كثيرًا من هداية الوحي، ثم نسيت ذلك الأصل الذي هو مصدر كل الخير، فعتت عن أمر ربها ورسله، فمنهم من كفر بهم وحدهم، ومنهم من كفر بهم وبه، وادَّعوا أنهم قد استغنوا بعقولهم عن تلك الهداية، بل وصموها بما وسموها به من سمات الغواية، حتى إذا ما برح الخفاء، وفضح الرياء، وانكشف الغطاء، ظهر أن تلك المدنية، هي أفظع الوحشية والهمجية، فأيهم أوسع فيها علومًا وفنونًا وأدق نظامًا وقانونًا، هم أشد فتكًا بالإنسان وتخريبًا للعمران، وأن غاية هذا الترقي استعباد الأقوياء للضعفاء بتسخيرهم لخدمتهم، واستخراج خيرات الأرض لهم، استمتاعًا بالشهوات الحيوانية السفلى، وإسرافًا في زينة هذه الحياة الدنيا."(١)

لذا وجدنا الإمام الغزالي وهو يرصد آثار ضعف القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يذكر من بينها تحكم الجانب الحيواني في الإنسان، وغلبته على مكونه الروحي، فيقول: "قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه،

(١) تفسير المنار جـ ٧صـ٥١٠ (تفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (١٩٩٠م).

وانمحق[١] بالكلية حقيقته ورسمه، فاستولت على القلوب مداهنة الخلق، وانْمحت عنها مراقبة الخالق، واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم."[٢]

ويضعنا الأصفهاني[٣] في نفس المعادلة فيقول:"فالإنسان يضارع المَلَك بقوة العلم والنطق والفهم، ويضارع البهيمة بقوة الغذاء والنكاح، فمن صرف همته كلها إلى تربية الفكر بالعلم والعمل فخليق أن يلحق بأفق الملك فيسمى ملكًا وربانيًّا كما قال تعالى: **(إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ)**[٤]، ومن صرف همته كلها إلى تربية القوة الشهوية باتباع اللذات البدنية، يأكل كما تأكل الأنعام فخليق أن يلحق بأفق البهائم، فيصير إما غمرًا كثور، أو شرِهًا كخنزير، أو ضريًا ككلب، أو حقودًا كجمل، أو متكبرًا كنمر، أو ذا روغان كثعلب، أو يجمع ذلك كله فيصير كشيطان مريد."[٥]

---

(١) **محقه الله فانمحق وامتحق:** أي ذهب خيره وبركته ونقص، (العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، جـ٣صـ٥٦، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال)

(٢) **هو:** الحسين بن محمد الراغب أبو القاسم الأصبهاني: أحد أعلام العلم، ومشاهير الفضل متحقق بغير فن من العلوم، وله تصانيف كثيرة منها: كتاب تفسير القرآن.الذريعة إلى مكارم الشريعة، المفردات من تفسير القرآن (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، المعروف بمعجم الأدباء، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، تحقيق: إحسان عباس، جـ٣صـ١١٥٦، دار الغرب الإسلامي، بيروت، طـ١ (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م).

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي جـ ٢صـ٣٠٦.

(٤) سورة يوسف آية رقم (٣١).

(٥) الذريعة إلى مكارم الشريعة، صـ٧٩، (الذريعة إلى مكارم الشريعة، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، تحقيق: د. أبو اليزيد العجمي، دار السلام، القاهرة، (١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م).

إن علاج هذه الأدواء الروحية ومظاهرها السلوكية التي ذكرها الأصفهاني وهو يرسم لنا صورة الإنسان الفاقد لجوهر تكريمه يمثل مقصدًا عظيمًا من مقاصد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما يكشف لنا بالتالي عن كُنه العلاقة بين هذه الفريضة وبين تحقيق مقتضيات التكريم الإنساني.

(ب) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقوة النفسية

إن هناك مسلكين من المسالك التي تبين إسهام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في تمثل الإنسان بالقوة النفسية كركيزة من ركائز تكريمه، وهما كالتالي:

أما المسلك الأول: فهو أن القيام بهذه الفريضة في حد ذاته ينمي القوة النفسية لدى الإنسان، وفي ضوء هذا يمكن أن نقرأ الارتباط بين كل من التوجيه إلى هذه الفريضة والصبر عليها كما في قوله تعالى: **{يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧)}**[(١)].

إن هذا النص القرآني بين أن "من أخص آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر توطين النفس على الصبر."[(٢)]

إن هذا يعني أن القيام بهذه الفريضة يستوجب تدريبًا للقوة النفسية حتى تتحقق مقاصد هذه الفريضة، وحتى تظهر بمعياريتها البعيدة عن التصرفات الذاتية الضيقة.

---

(١) سورة لقمان آية رقم (١٧).

(٢) الكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عبد الرحمن بن أبي بكر الحنبلي جـ١صـ٤٤.

"وأما حسن الخلق فليتمكن به من اللطف والرفق، وهو أصل البـــاب وأســـبابه، والعلم والورع لا يكفيان فيه، فإن الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والـــورع في قمعه ما لم يكن في الطبع قبوله بحسن الخلق، وعلى التحقيق فلا يتم الـــورع إلا مع حسن الخلق والقدرة على ضبط الشهوة والغضب، وبه يصبر المحتـــسب على ما أصابه في دين الله، وإلا فإذا أُصيب عرضه أو ماله أو نفسه بـــشتم أو ضرب نسي الحسبة، وغفل عن دين الله واشتغل بنفسه، بل ربمـــا يقـــدم عليـــه ابتداء لطلب الجاه والاسم."(١)

لذا جاء التوجيه النبوي ينص على حتمية الارتباط بين القيام بهذه الفريـــضة والتحقق بمظاهر القوة النفسية كالرفق والحلم:" لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا رفيق فيما يأمر به، رفيق فيما ينهى عنه، حليم فيما يأمر بـــه، حلـــيم فيما ينهى عنه."(٢)

وأما المسلك الثاني: فهو أن من مجالات الأمر بـــالمعروف والنهـــي عـــن المنكر تحقق الإنسان بهذه القوة النفسية التي كانت مظهرًا من مظاهر تكريمـــه؛ لذا رأينا التطبيقات النبوية لهذه الفريضة تتغيا تحقيق ذلك، ويمكن أن نفهم النهي النبوي الآتي في هذا السياق.

---

(١) إحياء علوم الدين جـــ ٢صـــ٣٣٣.

(٢) أورده الغزالي في الإحياء (جـــ٢صـــ٣٣٣)، وهو عند البيهقي في شعب الإيمـــان مـــن حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: قـــال رســـول الله (ﷺ): "مـــن أمـــر بمعروف فليكن أمره بمعروف جـــ١٠ صـــ٨١ رقم (٧١٩٨) (شعب الإيمـــان، أحمـــد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكـــر البيهقـــي، تحقيـــق: د. عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، طـــ١(١٤٢٣هـــ - ٢٠٠٣م).

عن أبي هريرة (ﷺ) أن رسول الله (ﷺ) قال: «لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي كلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي.»(١)

لقد ذكر الشراح أن مقصود هذا الحديث أمران:

أحدهما: نهي المملوك أن يقول لسيده ربي؛ لأن الربوبية إنما حقيقتها لله تعالى؛ لأن الرب هو المالك أو القائم بالشئ، ولا يوجد حقيقة هذا إلا في الله تعالى.

الثاني: يُكره للسيد أن يقول لمملوكه عبدي وأمتي، بل يقول غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي؛لأن حقيقة العبودية إنما يستحقها الله تعالى ولأن فيها تعظيمًا بما لا يليق بالمخلوق استعماله لنفسه، وقد بين النبي (ﷺ) العلة في ذلك فقال: (كلكم عبيد الله)، فنهى عن التطاول في اللفظ كما نهى عن التطاول في الأفعال."(٢)

رغم الإطار العقدي الذي يُفهم فيه هذا النهي فإنه يمكن استلهام العلاقة بينه وبين ركيزة التكريم من خلال أمرين:

الأول: أن فيه التأكيد على وضع الإنسان موضعه الحقيقي كمخلوق لخالق، وصنعة لصانع، ووضعُ الشيئ في موضعه أولى درجات تكريمه.

---

(١) أخرجه الإمام مسلم، ك: الألفاظ من الأدب وغيرها، باب حكم إطلاق لفظة العبد، والأمة، والمولى، والسيد جـ٤صـ١٧٦٤ رقم (٢٢٤٩): (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله (ﷺ)، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم جـ١٥صـ٦ (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢(١٣٩٢هـ).

الثاني: أن فيه تفرقةً بين الرق باعتباره ظرفًا تاريخيًّا وبين معنى العبودية الحقيقية التي يُعَدُّ التذلل فيها ركنًا ركينًا، فهي لا تُبذل من الإنسان إلا لمن يستحقها، وهي لا تُستَحق إلا لله تعالى.

إي إن في النهي عن إدامة هذه الكلمة هو حفظ للفكر أن يتشبع بها، وحفظ للنفس أن تألفها فتضيع منزلة التكريم.

(ج) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحقيق القوة العلمية

إن القوة العلمية برزت كمفردة للتكريم الإلهي لهذا الإنسان، تلك القوة التي برزت مع ابتداء خلق الجنس البشري، وتمثلت في آدم (عليه السلام) لحظة تفضيله على الملائكة كما قال تعالى: **(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)**[1].

قال الرازي: "هذه الآية دالة على فضل العلم؛ فإنه سبحانه ما أظهر كمال حكمته في خلقه آدم (عليه السلام) إلا بأن أظهر علمه، فلو كان في الإمكان وجود شيء من العلم أشرف من العلم لكان من الواجب إظهار فضله بذلك الشيء. لا بالعلم."[2]

إن ارتباط هذه الركيزة التكريمية للإنسان بالزمن الأول لخلقته يعطينا دلالة على مدى الارتباط بينها وبين إنسانية الإنسان، وكيف أن البحث عن معنى هذه الإنسانية لا يمكن أن ينطلق دون استبطان قواه المعرفية.

إن هذه الركيزة التكريمية للإنسان حددت موقعه في محيطه الكوني؛ حيث "قد خُصَّ الإنسان بقطبية للكون على المستوى المعرفي، وهي المتمثلة في قدرته على الاستيعاب المعرفي للكائنات؛ إذ هو مهيأ بوسائله الإدراكية لأن ينقل العالم

---

(١) سورة البقرة آية رقم (٣١).

(٢) إحياء علوم الدين، الغزالي جـ ٢صـ٣٠٦.

الخارجي في مواصفاته الكمية إلى عالمه الداخلي على سبيل التصور، فيصبح هذا الكائن الصغير حاملًا في ذاته لذلك العالَم الكبير."[١]

وإذا كانت القوة المعرفية للإنسان مفردة من أعظم مفردات التكريم الإلهي لهذا الإنسان فإن التمثل الحقيقي بها ليس في تحصيل الإطار الكمي من المعارف، بل في التحقق بهذه المعارف، والسير بها في إطار الهداية الإنسانية، وهنا يأتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليكون إحدى المسارات الجوهرية لذلك، ويمكن الكشف عن هذا من خلال المسلكين التاليين:

المسلك الأول: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمثل في حد ذاته دافعًا من دوافع اتساع الحالة العلمية لدى الإنسان؛ "لأن الجاهل ربما أمر بمنكر، ونهى عن معروف، وقد يغلظ في موضع اللين، أو يلين في موضع التغليظ."[٢]

بل إننا نجد في تطبيقات الأمة ما يعكس محورية العلاقة بين تيقظ القوة العقلية ومقتضياتها من المعرفة من جانب وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من جانب آخر، فعن أبي هريرة، قال: "قلت لرجل من جهينة: "ما بال زيد بن خالد[٣] أنبه أصحاب رسول الله (ﷺ) من جهينة؟ قال: لم يكن يُقِرُّ

(١) خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، بحث في جدلية النص والعقل والواقع، عبد المجيد النجار صـ ٥٧، المعهد العالي للفكر الإسلامي، سلسلة المنهجية الإسلامية (٥) دار الغرب الإسلامي، طـ ٢ (١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م).

(٢) الكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جـ ١صـ٣٢.

(٣) هو زيد بن خالد الجهني، كان صاحب لواء جهينة يوم الفتح. توفي بالمدينة سنة ثمان وستين وهو ابن خمس وثمانين. وقيل: غير ذلك، ينظر: (الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري=

سخطًا لله."[١]

وقال عروة بن الزبير[٢] (رحمه الله): "غشيتكم سكرتان: سكرة الجهل وسكرة حب العيش، فعند ذلك لا تأمرون بمعروف ولا تنهون عن منكر."[٣]

ونجد الغزالي وهو يتحدث عن آداب القيام بهذه الفريضة لا يُغفل القوة العلمية ؛حيث رد هذه الآداب إلى ثلاث العلم، والورع، وحسن الخلق.[٤]

إن القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يتطلب في إطاره العام بنيةً عقلية يستطيع بها الآمر والناهي التعرف على مواطن الأمر والنهي، وعلى أحوال ومراتب المأمورين والمنهيين ليكون أمره ونهيه على بصيرة؛لذا رأينا الحارث المحاسبي[٥] ينفذ إلى تلك العلاقة بنظرته التربوية المتعمقة قائلًا:

=القرطبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، جـ٢صـ٥٤٩، دار الجيل، بيروت، طـ١(١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق: صلاح بن عايض الشلاحي، صـ٦٦، مكتبة الغرباء الأثرية، السعودية، طـ١ (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).

(٢) **هو:** عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، الإمام، عالم المدينة، أبو عبد الله القرشي، الأسدي، المدني، الفقيه، أحد الفقهاء السبعة، كان عروة ثقة، ثبتًا، مأمونًا، كثير الحديث، فقيها، عالما (سير أعلام النبلاء، الذهبي، جـ٤صـ ٤٣٥ (مرجع سابق).

(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ابن أبي الدنيا صـ٧٧ (مرجع سابق).

(٤) إحياء علوم الدنيا، الغزالي جـ ٦صـ٤٤٨.

(٥) هو أبو عبد الله الحارث بن أسد البغدادي، المحاسبي، الزاهد، العارف، شيخ الصوفية، صاحب التصانيف الزهدية. مات: سنة ثلاث وأربعين ومائتين (سير أعلام النبلاء، الذهبي جـ ١٢صـ١١٢).

"استعنْ في أمرك كله بالاعتبار، فإن الأمر لا يزال مستورًا منك أو غائبًا عنك، فإذا نظرت إليه نظر المعتبِر كاد أن يقوم لك الاعتبار مقام المخبِر المعاين لما قد غاب عنك، ومقام الكاشف لك عن المستور عنك حتى تنظر إلى زين الأمور وشينها، وحسنها وقبيحها، وتعرف من أين صار الحَسَن حسناً والقبيح قبيحًا، فتتبع من ذلك ما فيه نجاتك، وتجتنب ما فيه هلكتك، وتعرف الناس بالاعتبار على منازلهم في لحن القول ولحن الفعل، وتعرف منازلهم ومذاهبهم."(١)

إن هناك مظهرًا آخر من مظاهر العلاقة بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبين القوة العقلية التي هي جوهر القوة العلمية؛ وهي أننا نجد كثيرًا من الأوامر والنواهي الشرعية مذيلة بوظائف القوة العقلية.

- "العقل: وازع يعقل صاحبه عما يأباه له التكليف.
- العقل: فهم وفكر يتقلب في وجوه الأشياء وفي بواطن الأمور.
- العقل: رشد يميز بين الهداية والضلال.
- العقل: رؤية وتدبير.
- العقل: بصيرة تنفذ وراء الأبصار.

العقل: ذكرى تأخذ من الماضي للحاضر، وتجمع العبرة مما كان لما يكون، وتحفظ وتعي، وتُبدئ وتُعيد، والعقل بكل هذه المعاني موصول بكل حجة من حجج التكليف، وكل أمر بمعروف وكل نهي عن محظور."(٢)

المسلك الثاني: أننا حين نطالع نصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر النظرية والتطبيقية نجد أنها تغيَّت تحقق الإنسان بهذه المفردة التكريمية أعني

(١) آداب النفوس، الحارث بن أسد المحاسبي صـ١٦٩ (مرجع سابق).

(٢) الإنسان في القرآن، عباس محمود العقاد، صـ ١٨، دار نهضة مصر، طـ٤(٢٠٠٥م).

مفردة القوة العلمية، والحيلولة بينه وبين المسلك التناقضي معها من الجهل والجهالة.

ومن هذه التطبيقات ما جاء عن المعرور بن سويد، قال: لقيت أبا ذر بالربذة، وعليه حُلَّةٌ، وعلى غلامه حُلَّةٌ، فسألته عن ذلك، فقال: إني سابيت رجلًا فعيرته بأمه، فقال لي النبي (ﷺ): «يا أبا ذر أعيرتَه بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خَوَلُكم[1]، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فَلْيُطْعِمْه مما يأكل، ولْيُلْبِسْه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم.»[2]

إن كلمة (جاهلية) هنا لا تعني مجرد الإشارة إلى مرحلة زمنية بقدر ما تعني الإشارة إلى نسق فكري ومعرفي، وحين نحلل هذا النسق يظهر لنا مدى تناقضه مع الصورة الإنسانية التي هي محط التكريم والتفضيل.

"فالجاهلي يقدم لنا أزمة مثلثية الشكل تشتمل على ثلاث زوايا:

- زاوية الهوى والاشتغال بالعَرَض الدنيوي الزائل.
- وزاوية عبادة الصنم والإعراض عن الحق تبارك وتعالى.
- وزاوية الجمود العقلي (الإبائية) والركود الثقافي."[3]

---

(١) أي خدمكم، وسُمُّوا بذلك لأنهم يتخولون الأمور أي يصلحونها، ومنه الخولي لمن يقوم بإصلاح البستان (فتح الباري بشرح صحيح البخاري. أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي. قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب. جـ٥صـ١٧٤، دار المعرفة، بيروت، (١٣٧٩هـ).

(٢) تفسير الرازي جـ ١٢صـ٣٩٣.

(٣) المنهج النبوي والتغيير الحضاري، برغوث عبد العزيز مبارك، تقديم: عمر عبيد حسنه، صـ ١١٥، سلسلة كتاب الأمة (٤٣)، رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية، قطر، طـ١(١٤١٥هـ ـ١٩٩٥م).

وقد أعطانا الراغب إشارةً إلى هذا النسق حين تحدث عن معاني الجهل، وذكر منها:" فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يُفعل، سواء اعتقد فيه اعتقادًا صحيحًا أو فاسدًا."(١)

إن مفاهيم الجهل والجهالة مفاهيم قامت فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الأصل لاقتلاعها من الواقع الإنساني وتحقيق مضاداتها التي تنتمي إلى الدائرة المعرفية؛ لذا رأيناها حاضرة في التطبيقات القرآنية والنبوية لهذه الفريضة، ففي نهي لوط (عليه السلام) عن الانحراف الأخلاقي الذي تفشى في قومه رأينا الاتصاف بالجهل علةً لهذا الانحراف كما قال تعالى: **{وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ(٥٥)}**(٢).

وقد كشف لنا الرازي بعقليته المتأملة في آفاق النص القرآني عن معنى الجهل المراد هنا، وأنه ليس انعدام المعرفة، بل سلوك ما يضادها.

قال الرازي: فإن قلت فسرت (تبصرون) بالعلم، وبعده (بل أنتم قوم تجهلون) فكيف يكونون علماء وجهلاء؟ قلت أراد تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمكم بذلك."(٣)

وحين أبدى بنو إسرائيل توجهًا انحرافيًّا في التصور العقدي كان نعي موسى (عليه السلام) عليهم مرتكزًا إلى تنبيههم إلى حالة الجهل التي تقف وراء هذا الانحراف كما قال تعالى: **{وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ**

(١) تفسير الرازي جـ ١٢صـ٣٩٣.

(٢) سورة النمل الآيتان رقم (٥٤، ٥٥).

(٣) تفسير الرازي جـ ١٢صـ٣٩٣.

يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨)}[١].

إن معنى ما مضى أن الاختلال في تمثل الإنسان لقوته العلمية يستتبع صورةً من صور القيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لإصلاح هذا الاختلال، وإعادة حالة التمثل إلى جوهريتها ومحوريتها في التكريم الإلهي للإنسان.

(د) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقوة البيانية

تأتي القوة البيانية لتشكل مفردةً من مفردات التكريم، والتي ألمح إليها القرآن في حديثه عن قصة الخلق الإنساني في قوله تعالى: **(خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)**[٢].

يقول ابن عاشور: "البيان: الإعراب عما في الضمير من المقاصد والأغراض وهو النطق، وبه تميز الإنسان عن بقية أنواع الحيوان، فهو من أعظم النعم، وأما البيان بغير النطق من إشارة وإيماء ولمح النظر فهو أيضًا من مميزات الإنسان وإن كان دون بيان النطق."[٣]

وإذا كانت القوة البيانية تمثل هذه المحورية بين مفردات التكريم الإلهي للإنسان، فإنها كانت إحدى دوائر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى بدا ذلك في بعض تعريفات المعروف؛ حيث جاء أنه: "كل ما عرفه الشرع

(١) سورة الأعراف آية رقم (١٣٨).
(٢) سورة الرحمن الآيتان رقم (٤، ٣).
(٣) التحرير والتنوير جـ ٢٧صـ٢٣٣ (مرجع سابق).

واستحسنه، فيشمل جميع أصناف البر كقرض، وإغاثة ملهوف، وإرشاد ضال إلى غير ذلك."[١]

فإرشاد الضال يمثل صورةً من صور التحقق بالقوة البيانية.

وحين نتدبر النصوص القرآنية المؤصلة لهذه الفريضة نجد أمرين:

الأمر الأول: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حد ذاته سبيل من سبل تصريف هذه القوة البيانية في مسارها الصحيح، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: {**لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤)**}[٢].

وفي الهدي النبوي: «كلام ابن آدم عليه لا له، إلا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وذكر الله (ﷻ).»[٣]

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمثل في هذين النصين مسارًا من مسارات التمثل بالقوة البيانية.

الأمر الثاني: أن الانحراف في التحقق بهذه القوة البيانية كان إحدى مسارات النهي عن المنكر كما قال تعالى: {**لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣)**}[٤].

---

(١) تفسير الألوسي (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، جـ ٣صـ١٣٩، دار الكتب العلمية، بيروت، طـ١(١٤١٥ هـ).

(٢) سورة النساء آية رقم (١١٤).

(٣) أخرجه الإمام الترمذي في سننه، باب ما جاء في حفظ اللسان، باب منه جـ٤صـ٦٠٨ رقم (٢٤١٢).

(٤) سورة المائدة آية رقم (٦٣).

فقول الإثم هنا إشارة إلى انحراف في التحقق بالقوة البيانية التي أراد الخالق لها أن تكون مرتبطةً بالحق لا بالباطل؛ حيث إن "الإثم- هنا- سائر الأقوال التي يترتب عليها الإثم."[١]

النقطة الثانية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحقيق الصورة الظاهرية من التكريم

لقد امتد التكريم الإلهي لهذا الإنسان إلى صورته الظاهرة، فكانت هذه الصورة شاهدًا على أن هناك إرادة إلهية لإيجاد مخلوق مميز

قال تعالى: {**الذي خلقك فسواك فعدلك (٧) في أي صورة ما شاء ركبك (٨)**}[٢].

فالمعنى هنا: "إن شاء ركَّبك في غير صورة الإنسان من صورة كلب، أو صورة حمار، أو خنزير، أو قرد."[٣]

ولقد أتى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كضمانٍ أيضًا لحفظ هذه المفردة من مفردات التكريم؛ لذا رأينا من مجالات التطبيقات النبوية للنهي عن المنكر النهي عما يخرم هذا الإطار الظاهري من التكريم، فعن سمرة بن جندُب[٤] « كان نبي الله (ﷺ) يَحُثُّنا على الصدقة، وينهانا عن ==

(١) الكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جـ١صـ٤٤.

(٢) سورة الانفطار الآيتان رقم (٧، ٨).

(٣) تفسير الرازي جـ ٣١صـ٧٦.

(٤) **هو:** سمرة بن جندب بن هلال بن جريج بن مرة بن حزن بن عمرو بن جابر، كان من الحفاظ المكثرين عن رسول الله (ﷺ)، وكانت وفاته بالبصرة في خلافة معاوية (رضي الله عنه) سنة ثماني وخمسين. (الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، جـ٢صـ ٦٥٣، (مرجع سابق).

==المُثْلة."[1]

إن المثلة المنهي عنها هنا مظهر يعاكس حالة التكريم الظاهري الذي جعله الله لهذا الإنسان؛ إذ إنها تعني: "تعذيب المقتول بقطع أعضائه وتشويه خلقه قبل أن يُقتل أو بعده، وذلك مثل أن يُجدع أنفه، أو أذنه، أو يُفقأ عينه، أو ما أشبه ذلك من أعضائه."[2]

وإذا كانت صورة الإنسان وبنيته محترمةً في الإسلام حال موته باعتبارها مظهرًا من مظاهر التكريم الإلهي لهذا الإنسان، فإنها أشد احترامًا حال حياته؛ لذا رأينا التعرض لهذه الصورة بما يُذهب تكريمها يدخل ضمن دائرة المنهيات، فعن سويد بن مقرِن[3]، أن جارية له لطمها إنسان، فقال له سويد: أما علمت أن الصورة مُحَرَّمة، فقال: «لقد رأيتُني وإني لسابع إخوة لي مع رسول الله (ﷺ)، وما لنا خادم غير واحد، فعمد أحدنا فلطمه، فأمرنا رسول الله (ﷺ) أن نعتقه.»[4]

---

(١) أخرجه أبو داود، ك: الجهاد، باب في النهي عن المثلة جـ٣صـ٥٣ رقم(٢٦٦٧)، والحاكم في المستدرك بنحوه من حديث عمران بن حصين (ﷺ)، ك: النذور، جـ٤صـ٣٣٨ رقم (٧٨٤٣)، وقال:هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. (المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١(١٤١١هـ – ١٩٩٠م).

(٢) معالم السنن للخطابي جـ ٢صـ٢٨٠ (معالم السنن، شرح سنن أبي داود، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي، المطبعة العلمية، حلب، ط١(١٣٥١هـ – ١٩٣٢م).

(٣) هو: سويد بن مقرن بن عائذ المزني، أخو النعمان بن مقرن، يُعَدُّ في الكوفيين.(الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، جـ٢صـ٦٨٠).

(٤) أخرجه مسلم، ك: الإيمان، باب صحبة المماليك، وكفارة من لطم عبده جـ٣صـ١٢٨٠ رقم (١٦٥٨).

وذكر الشراح أن هذا النهي جاء "إكرامًا لـــه؛ لأن فيـــه محاســـن الإنـــسان وأعضاءه اللطيفة، وإذا حصل فيه شين أو أثر كان أقبح."[1]

إن هذه النصوص توضح لنا أن حفظ المنحى الظاهري من تكريم الإنـــسان ينبغي أن يأخذ مكانه من خارطة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لقد اتضح لنا في هذا المطلب أن هناك علاقة جوهرية بين التكـــريم الإلهـــي الإنسان والرؤية الحضارية الإسلامية، وأنه إذا كانت هناك مفردات عدة لمرتكز التكريم كالمفردة الروحية والنفسية والعلمية والبيانية وحتى الصورة الظاهريـــة، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل من سبل تمثـــل الإنـــسان بهـــذه المفردات مما يعني بطريق التبع أنه سبيل من سبل تحقيق الرؤيـــة الحـــضارية الإسلامية.

(١) شرح النووي على مسلم، جـــ ١١صـــ١٣٠، (مرجع سابق).

المطلب الثالث

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحقيق مرتكز الاستخلاف

إن هناك نقطتين نريد إيضاحهما في هذا المطلب، وهما:

النقطة الأولى: أن الاستخلاف ركيزة من ركائز الرؤية الحضارية الإسلامية.

النقطة الثانية: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إحدى آليات المنهج الإسلامي لتحقيق الاستخلاف.

أما بخصوص النقطة الأولى: فيمكن القول بأنه إذا كانت مرتكزات أيٍّ من الحضارات لا تمثل فحسب شرطية انطلاقتها وضمان بقائها، بل إنها ترسم كذلك الحدود الفاصلة بينها وبين ما سواها من الحضارات، فإن الاستخلاف كمرتكز من مرتكزات الحضارة الإسلامية ينضوي تحت هذه القاعدة.

إن الاستخلاف ليس رتبةً قد مُنِحت لجنس الإنسان دون متطلبات لاستيفائها وشروط لتمثلها، بل هي منسبكة ضمن إطار الغايات الكبرى والمقاصد العظمى التي تُحيط بالوجود الإنساني في هذه الأرض.

إن هذا يعني أن "مضمون مفهوم الاستخلاف هو إظهار الإنسان لربوبية وألوهية الله تعالى في الأرض، وهو ما يكون بالعبودية والعبادة."(١)

ويحدد الراغب الأصفهاني هذه المتطلبات بصورة أوضح فيقول: "لا يصلح لخلافة اللَّه تعالى ولا يَكْمُل لعبادته وعمارة أرضه إلا من كان طاهر النفس قد أُزيل رجسه ونجسه، فللنفس نجاسة كما أن للبدن نجاسة، لكن نجاسة البدن تُدرك بالبصر، ونجاسة النفس لا تُدرك إلا بالبصيرة، وإياها قصد (ﷻ) بقوله:

(١) الأبعاد المعرفية لمفهوم الاستخلاف، د. صبري محمد خليل، صـ ٣ مركز التنوير المعرفي. (٢٠٠١م).

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)[١]، وبقوله: (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ)[٢]، وبقوله: (كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)[٣]، وإنما لم يصلح لخلافة اللَّه تعالى إلا من كان طاهر النفس، لأن الخلافة هي الاقتداء به على قدر طاقة البشر في تحري الأفعال الإلهية، ومن لم يكن طاهر النفس لم يكن طاهر القول والفعل؛ فكل إناء بالذي فيه ينضح."[٤]

إن هذه الاعتبارات التي ألمح إليها الراغب تعيد رؤيتنا لخارطة الوجود الإنساني، وتعطينا موردًا لتصنيف هذا الوجود؛ حيث ترينا أن " الخلافة تحديد لمركز الإنسان الوجودي بين المخلوقات، أو هي تحديد وتعيين دقيق لمكانته ودرجته الوجودية في الكون."[٥]

هكذا يمثل الاستخلاف كل هذه الأبعاد الحضارية، ويقيم الوعي به علاقات منضبطة بين الوجود الإنساني وما سواه من أنواع الوجود.

إن هذه المهمة الاستخلافية كانت إحدى الركائز التي نشأت مع الإنسان الأول، واستمر التأكيد عليها وعلى بعدها الحضاري في الرسالات الإلهية

" لعل ذلك الاستخلاف بكل أبعاده ومقاصده وتكاليفه هو في المحصلة النهائية ميثاق البناء الحضاري الذي عهد الله به لآدم أبي البشر (عليه السلام)، واستمر تكليفًا في تاريخ النبوات، وتأكد في قيم الرسالة الخاتمة." [٦]

---

(١) سورة التوبة آية رقم (٢٨).

(٢) سورة المدثر آية رقم (٥).

(٣) سورة الأنعام آية رقم (١٢٥).

(٤) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني صـ ٨٦ (مرجع سابق).

(٥) استخلاف الإنسان في الأرض، د. فاروق أحمد دسوقي، صـ٢٣، دار الدعوة بدون.

(٦) تقديم عمر عبيد حسنه لكتاب الرؤية الإسلامية صـ٦ العدد (١٥٣) المحرم (١٤٣٤هـ) السنة الثالثة والثلاثون، إدارة البحوث والدراسات الإسلامية بقطر.

وأما بخصوص النقطة الثانية، وهي كون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمثل إحدى آليات المنهج الإسلامي في تحقيق مقتضيات الاستخلاف الإلهي للإنسان، فإننا يمكن تجليتها من خلال ما يلي:

الأمر الأول: أن مقام الاستخلاف ليس مرتبطاً بالتمثل الذاتي لمصالح الدارين فحسب، بل لا بد من السعي لنشر حالة التمثل هذه لدى الإنسانية؛ لذا كان أول المتمثلين لمقام الاستخلاف على حقيقته هم أول المضطلعين بمهمة إصلاح الخلق، وأمرهم بكل معروف، ونهيهم عن كل منكر.

إن هذه النتيجة هي التي توصل إليها الغزالي وهو يُقَسِّم البشر بناء على قيامهم بمفردات هذه المهمة الاستخلافية. حيث قال:" الناس ثلاثة أصناف:

صنف هم المنهمكون في الدنيا بلا التفات إلى العقبى، إلا باللسان وحديث النفس وهم الأكثرون. وقد سُمُّوا في كتاب الله عبدة الطاغوت وشرّ الدواب ونحوها.

وصنف مخالِفون لهم غاية المخالفة، اعتكفوا بِكُنه هِمَمِهم على العقبى، ولم يلتفتوا أصلًا إلى الدنيا، وهم النساك.

وصنف ثالث متوسطون، وفَّوا الدارين حقهما، وهم الأفضلون عند المحققين، لأن بهم قوام أسباب الدنيا والآخرة، ومنهم عامة الأنبياء (عليهم السلام)، إذ بعثهم الله (عز وجل)، لإقامة مصالح العباد في المعاش والمعاد...فالمُراعي للدنيا والدين، كما يجب وعلى ما يجب، جامعاً بينهما، خليفة الله في أرضه."[1]

إذًا فالقائمون بما يصلح العباد في معاشهم ومعادهم، الدالون لهم على أبواب الهدى، الناهون لهم عن مسالك الردى هم بعينهم المتمثلون بحق لمقام الاستخلاف.

---

(١) ميزان العمل، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، تحقيق: د. سليمان دنيا، صـ٣٨٣، دار المعارف، مصر، طـ١(١٩٦٤هـ).

الأمر الثاني: التذكير بمهمة الاستخلاف كمنطلق للأمر والنهي

حين نتدبر طائفة النصوص القرآنية المؤصِّلة لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاصة تلك التي توضح مسلك الأنبياء والمرسلين نجد تمثل الاستخلاف ظاهرًا في ثناياها، ففي دعوة هود (عليه السلام) يأتي التذكير بهذه الركيزة أعني ركيزة الاستخلاف {**أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩)**}[١].

وفي دعوة صالح (عليه السلام) نفس الأمر: {**وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤)**}[٢].

إن هذه الآيات تبين كيف أن التذكير بمقام الاستخلاف مدخل من مداخل الإصلاح الإنساني على يد أنبياء الله ورسله، والقائمين بمهمة البلاغ بعدهم.

الأمر الثالث: مهمة الاستخلاف والمدلول الأوَّلي للمعروف والمنكر

إذا كان المفهوم الأوَّلي للمعروف الذي يُؤمَر به في الإسلام تنضوي تحته كل حركة إنسانية هادفة ساعية في إصلاح هذه الأرض، فإن هذه الحركة بعينها ركن ركين وجزء لا يتجزأ من مفهوم الاستخلاف القرآني، فـ" عملية الاستخلاف في القرآن الكريم حركة إنسانية إيجابية فاعلة دائبة مستمرة ومتناغمة مع سنن الأنفس والآفاق يسعى الإنسان من خلالها إلى ترقية حياته الروحية والخلقية وتسخير كل مظاهر الكون الفسيح."[٣]

---

(١) سورة الأعراف آية رقم (٦٩).

(٢) سورة هود آية رقم (٧٤).

(٣) ميزان العمل، أبو حامد الغزالي الطوسي، صـ٢٠٠ (مرجع سابق).

وإذا كان المفهوم الأوَّلي للمنكر الذي يُنهى عنه في الإسلام تنضوي تحته كل حركة إنسانية فاسدة مفسدة تعصف بالوجود الإنساني على هذه الأرض، أو تُضعف فعاليته، وتهدد مقاصده، فإن هذه الحركة بلا شك أكبر تنكر لمفهوم الاستخلاف كما أراده القرآن، ولذلك حين قالت الملائكة: **(أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ)**[1] كان ذلك إشعارا بأن مهمة الاستخلاف لا تتماشى مع تلك الحركة الإنسانية المفسدة في الأرض؛ لذا أتى الرد القرآني مبينا أن حالة الوجود الإنساني لن تكون ممثلة في تلك المظاهر التي ذكرتها الملائكة، بل إن هناك صورة أخرى تحقق الحكمة من مهمة الاستخلاف: **(قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)**[2].

يقول ابن كثير: "إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم؛ فإني سأجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد فيهم الصديقون والشهداء، والصالحون والعبَّاد، والزهاد والأولياء، والأبرار والمقربون، والعلماء العاملون والخاشعون، والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله، صلوات الله وسلامه عليهم."[3]

إننا حين نتأمل مفردات هذه الصورة التي بيَّنها ابن كثير ندرك إلى أي مدى تتجذر العلاقة بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومرتكز الاستخلاف، فلا يمكن تصور مهمة الرسل والأنبياء ومن تبعهم على الحقيقة سوى بقيامهم بهذه الفريضة.

---

(١) سورة البقرة آية رقم (٣٠).

(٢) الآية السابقة.

(٣) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، جـ١صـ٢١٧، دار طيبة طـ٢ (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).

الأمر الرابع: الاستخلاف والمقصود الأعظم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

حين نتدبر أن المقصود الأعظم للقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو تحقيق مقصد العبودية لله تعالى، فإن هذا المقصد يضعنا مباشرة في قضية الاستخلاف التي نحن بصددها؛ حيث إننا نجد تحقيق هذه العبودية الشرط الأعظم لاستحقاق الاستخلاف؛ ذلك لأن "الإنسان الخليفة جوهر خلافته أن يحصر همه وجهده في الاقتراب من الله مستخلِفه، وذلك بالعمل الدائب والكدح المستديم لترقية ذاته وتنميتها."(١)

ويؤسس لهذه العلاقة قوله تعالى: **{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥)}**(٢).

وقد بيَّن اللغويون هذه العلاقة بين الوعد بالاستخلاف في الآية وجملة **{يَعْبُدُونَنِى}** حيث ذكروا أن هذه الجملة إما أن تكون حالًا من الموصول الأوَّلِ مفيدة لتقييد الوعد بالثَّباتِ على التَّوحيدِ، أو استئنافًا ببيان المقتضى للاستخفلاف وما انتظم معه في سلكِ الوعدِ."(٣)

---

(١) خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، بحث في جدلية النص والعقل والواقع، عبد المجيد النجار صـ ٦٢ (مرجع سابق).

(٢) سورة النور آية رقم (٥٥).

(٣) تفسير أبي السعود جـ٦صـ١٩١ (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون).

إن هذه العلاقة التي بيَّنها القرآن بين مفهومي العبادة والاستخلاف تعني أن: "إنسان الاستخلاف هو الإنسان الذي يتطابق مع الخطاب الإلهي، ويستجيب لنداء الإسلام، ويمارس وظائفه الأساسية في العبادة والإعمار والإنقاذ والتعارف، ويسعى دومًا إلى إيجاد الشروط التي تؤهله لتقديم الإسلام."(١)

إن الاستخلاف الذي قصده القرآن إذا ليس منفصلًا عن غاية وجوده الكبرى والمتمثلة في العبودية، بل إنهما متلازمان؛ لأن "الخليفة عبد وسيد في آن واحد، عبد لمن استخلفه، وسيد على من هو مستخلف عليه. ذلك هو الإنسان، ومن ثم يجب أن ننبه إلى أن العبودية والسيادة وجهان لحقيقة واحدة هي الخلافة، وهما قائمتان كشيء واحد في الذات الإنسانية، ولا يمكن الفصل بينهما إلا في الذهن للدراسة والتوضيح فقط، أما في عالم الواقع فإن الإنسان لا يمكنه إقامة إحداهما دون الأخرى، فإذا لم يحقق الإنسان عبوديته لله وحده فإنه سيسقط بالضرورة في عبوديته لغير الله، ومن ثم يفقد سيادته على هذا الغير، وإذا لم يحقق الإنسان سيادته على كل شيئ وحتى الأرض فإنه بالتالي يصعب عليه أن يكون عبدًا لله (ﷻ) وحده."(٢)

الأمر الخامس: شواهد من الوعي بهذه العلاقة

إن هذه العلاقة بين كل من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومظلته الأعم من الدعوة إلى الله من جانب وتحقيق مقام الاستخلاف من جانب آخر كانت واضحة لدى السابقين من الصحابة والتابعين، وذلك لفهمهم المقاصدي لهذا الدين؛ لذا فالحسن البصري وهو يتدبر إحدى النصوص المؤصلة للقيام بالواجب الدعوي العام وهو قوله تعالى: **(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ**

(١) المنهج النبوي والتغيير الحضاري، برغوث عبد العزيز بن مبارك صـ ١٤٢ (مرجع سابق).

(٢) استخلاف الإنسان في الأرض، د. فاروق أحمد دسوقي صـ١٠.

وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ[1] يُظهر مدى قرب القائمين به من الله تعالى فيقول: "هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحا في إجابته، وقال: إنني من المسلمين لربه."[2]

ثم يأتي بمفهوم كأنه يراه جامعًا لما سبق وهو مفهوم الاستخلاف فيقول: "هذا خليفة الله."[3]

ولم يكن الوعي بهذه العلاقة راكزًا في عقلية الحسن (رحمه الله) فحسب، بل كان بمثابة الوعي العام حتى قال عبد الله بن نعيم المعافري: سمعت المشيخة، يقولون: «من أمر بمعروف، ونهى عن منكر، فهو خليفة الله في الأرض، وخليفة كتابه، وخليفة رسول الله (ﷺ)»[4].

في نهاية هذا المطلب يمكن القول بأن الاستخلاف يُعَدُّ إحدى أبرز الركائز التي قامت عليها الرؤية الحضارية الإسلامية، فهو متعلق بغاية وجوده في هذه الأرض، مرتبط بجملة علاقاته الممتدة، وحين كان الأمر كذلك أتى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليمثل ضمانا من ضمانات اضطلاع الإنسان بمهمته الاستخلافية.

(١) سورة فصلت آية رقم (٣٣).

(٢) الزهد والرقائق، أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، التركي ثم المرْوزي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، جـ١صـ٥٠٧، دار الكتب العلمية – بيروت، بدون.

(٣) المرجع السابق جـ ١صـ ٥٠٧.

(٤) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي، تحقيق: سمير بن أمين الزهيري، جـ١صـ٤٢، دار السلف، طـ١ (١٤١٦هـ – ١٩٩٥م).

المطلب الرابع

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحقيق مقتضيات التسخير

النقطة الأولى: موقع التسخير من الرؤية الحضارية الإسلامية

حين كان انطلاقنا في هذا البحث من مفهوم الحضارة في إطار الرؤية الإسلامية فلا بد وأن تكون قراءتنا للعلاقة بين الإنسان ومحيطه الكوني مرتبطةً هي الأخرى بتلك الرؤية، ولاشكَّ أن التسخير يمثل ركنًا ركينًا في جوهرية العلاقة بين الإنسان والكون.

بين الإنسان باعتباره صانع الحضارة، والكون باعتباره محلا للتحضر الإنساني.

وإذا أردنا تصورًا عامًّا عن مفهوم التسخير وأبعاده الحضارية فيمكن القول بأنه:

"تسهيل الانتفاع بدون مانع، وهو يُؤذن بصعوبة الانتفاع لولا ذلك التسخير، وأصله تسهيل الانتفاع بما فيه إرادة التمنُّع مثل تسخير الخادم، وتسهيل استخدام الحيوان الداجن من الخيل، والإبل، والبقر، والغنم ونحوها بأن جعل الله فيها طبع الخوف من الإنسان مع تهيئتها للإلف بالإنسان، ثم أُطلق على تسهيل الانتفاع بما في طبعه أو في حاله ما يعذر الانتفاع به لولا ما ألهم الله إليه الإنسان من وسائل التغلب عليها بتعرف نواميسه وأحواله وحركاته وأوقات ظهوره، وبالاحتيال على تملكه."(١)

واستخدام القرآن الكريم لمفهوم التسخير فيه دلالة على أن "كلمة التسخير من أقوى التعابير في الدلالة على الخدمة المستقرة الدائبة، وأن على الإنسان أن يفيد منه ويسخره لصلاحه في المعاش الدنيوي والمعاد الأخروي."(٢)

---

(١) التحرير والتنوير جـ ١٧ صـ٣٢١.

(٢) الكون والإنسان في التصور الإسلامي، د. حامد صادق قنيبي صـ ٦، مكتبة الفلاح، الكويت (١٤٠٠هـ ـ١٩٨٠م).

إن هذا يعني أن التسخير ليس منفصلًا عن الحركة الإنسانية، بل تكتنفهما علاقة تبادلية، فالكون مسخر للإنسان لكن في الوقت ذاته لا بد من حركة إنسانية واعية لاكتشاف أسرار هذا التسخير وتوسيع دائرة الانتفاع به، وهذا يضع كل ما يُقَوِّم هذه الحركة الإنسانية ويضبط مساراتها في علاقة مباشرة بمفهوم التسخير.

"لقد أراد الإسلام أن يرسم طريقًا أو منهجًا وسطًا بصدد هذا التعامل، فصاغ مبدأ تسخير الطبيعة لخدمة الأهداف الإنسانية، ولكنه في الوقت نفسه ضبط صيغ التعامل بين الطرفين بقيم ومبادئ وأعراف تحقق أقصى درجات الكشف والإبداع."(١)

النقطة الثانية: مسالك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في تحقيق مقتضيات التسخير

المسلك الأول: ضبط التصور الفكري

لقد جاء مفهوم التسخير ضمن المفاهيم الكبرى التي شكَّل بها الإسلام العقلية المسلمة في النظرة إلى الكون، هذه النظرة التي شغلت جانبًا كبيرًا من التاريخ الفكري للإنسانية، وأنتجت تصورات كان الكثير منها خارجًا عن إطار الرؤية التي أتى بها الإسلام، حيث تمثلت في نظرتين متضادتين للكون هما:

النظرة الأولى: نظرة تقديس للكون تقلب صورة التسخير رأسًا على عقب.

النظرة الثانية: نظرة استعداء للكون تُبطل مقصد التسخير.

لقد كان تقويم تلك النظرة إحدى مفردات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما نرى مثلا في قصة أصحاب الجنتين، فقد كان هناك تصور خاطئ لقضية

(١) صفحات من حضارة الإسلام (العلوم التطبيقية، دراسة في المعطيات وعوامل الازدهار والتوقف)، د. عماد الدين خليل صـ١٤٢ (مرجع سابق).

التسخير {**وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦)**}[١].

لقد تمثل هذا التصور في النظرة المبتورة إلى المحيط الكوني، تلك النظرة التي تحجب صاحبها عن وضعه في إطاره الحقيقي وصيرورة التعلق به غايةً للحياة الإنسانية بدلًا من أن يكون وسيلةً من وسائلها.

من هنا جاء هذا التطبيق القرآني للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في إطار التصحيح لهذه النظرة المبتورة من خلال عدة نقاط:

- التذكير بالحقائق التي لا يمكن أن تنمحي بنظرات قاصرة. {**أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨)**}[٢].
- التذكير بالمسلك الضابط للتعلق بالمحيط الكوني ومسخراته (**وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ**)[٣].
- التذكير بجزاء التنكر لهذه الحقائق والسعي في السبيل المضاد لها {**فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١)**}[٤]

المسلك الثاني: ضبط الحركة البشرية في المحيط الكوني

ومغزى هذا المسلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يشكل إحدى الضمانات لانتظام العلاقة بين الحركة الإنسانية الراشدة والمحيط الكوني

(١) سورة الكهف، الآيتان رقم (٣٥، ٣٦).
(٢) المصدر السابق، الآيتان رقم (٣٧، ٣٨).
(٣) المصدر السابق، الآيتان رقم (٣٩).
(٤) المصدر السابق، الآيتان رقم (٤٠، ٤١).

المسخر؛ لذا جاءت النصوص التي تتحدث عن حالة التمكين لأهل الإيمان مرتبطة بقيامهم بهذه الفريضة؛ حيث قال تعالى: {**الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)**}[(١)].

"إنهم هم الذين كمّلوا أنفسهم باستحضار المعبود والتوجه إليه في الصلاة على قدر الطاقة، وكانوا عونًا لأممهم بإعانة فقرائهم وذوى الحاجة منهم، وكمّلوا غيرهم، فأفاضوا عليهم من علومهم وآدابهم، ومنعوا المفاسد التي تعوق غيرهم عن الوصول إلى الرقى الخلقي والأدب السامي."[(٢)]

وفي دعوة هود (عليه السلام) نجد تلك المزاوجة الموضوعية بين ركائز الإيمان وتحقيق مقتضيات التسخير كما في قوله تعالى: {**وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤)**}[(٣)].

وفي قوله أيضًا: {**أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١)**}[(٤)].

إن دعوة هود (عليه السلام) لم تأت لتعيب مطلق الحركة الإنسانية في الكون، بل أتت لتعيب المسلك الفاسد من تلك الحركة، لذا كان الإنكار منصبًّا على ثلاث من الصور، وهي:

---

(١) سورة النور، آية رقم (٤١).

(٢) تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي، جـ ١٧صـ١٢٠، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، طـ١(١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م).

(٣) سورة الأعراف آية رقم (٧٤).

(٤) سورة الشعراء الآيات (١٢٨ ـ ١٣١).

الأولى: (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ).
الثانية: (وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ).
الثالثة: (وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ).

وقد ذكر ابن عاشور عدة أوجه في توجيه إنكار هود (عليه السلام).

الوجه الأول: أن هودًا (عليه السلام) لم يُرِدْ بدعوته تلك أن يستأصلوا ما اتخذوه من الآيات والمصانع التي هي ضروب من المنافع، بل نعى عليهم إهمالهم إرضاء الله تعالى بها واتخاذهم إياها للرياء والغرور، حتى انقلبت عظمة دنيوية محضة لا يُنظر فيها إلى جانب النفع، فصار وجودها شبيهًا بالعبث لأنها خلت عن روح المقاصد الحسنة.(١)

إن معنى هذا أن: "الله تعالى لم ينكر على القوم ما وصلوا إليه من إبداع واختراع حضاري، وإنما أنكر عليهم مقاصد وغايات ذلك التحضر والتمدن."(٢)

والوجه الثاني: أن عادًا جعلت بنايات على المرتفعات من الطرق يعبثون فيها ويسخرون بالمارة. وقد يُفَسَّر هذا القول بأن الأمة في حال انحطاطها حوَّلت ما كان موضوعًا للمصالح إلى مفاسد، فعمدوا إلى ما كان مبنيًّا لقصد تيسير السير والأمن على السابلة من الضلال في الفيافي المهلكة فجعلوه مكامن لهو وسخرية.(٣)

---

(١) التحرير والتنوير باختصار وتصرف جـ ١٩ صـ١٦٦.
(٢) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، محمد هيثور، صـ٢٩٨، المعهد العالي للفكر الإسلامي، القاهرة، طـ١ (١٤١٧هـ-١٩٩٦م).
(٣) التحرير والتنوير جـ ١٩ صـ١٦٦.

والوجه الثالث: أن المصانع قصور عظيمة اتخذوها فيكون الإنكار عليهم متوجهًا إلى الإسراف في الإنفاق على أبنية راسخة مكينة كأنها تمنعهم من الموت، فيكون الكلام مسوقًا مساق الموعظة من التوغل في الترف والتعاظم.(١)

إنني لا أرى أن هناك تعارضًا بين هذه الأوجه الثلاث في حقيقة ما كانت تفعله عادٌ؛ بل يمكن أن يُقال: إنها جمعت بينها لكن في أحوال مختلفة، فكانت لا تتغيا بما تبدعه من مظاهر حضارتها تحقيق العبودية لله، وكانت لخلوها من هذه الغاية ربما تتعامل مع بعض منتجاتها الحضارية تعاملًا عبثيًا منقطعا عن حكمته الأصيلة، ولكن الشاهد معنا على أي من هذه التأويلات أن هناك علاقة راسخة بين تطبيقات الأنبياء والمرسلين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبين إصلاح الحركة البشرية في تفاعلها مع الكون المسخَّر.

وفي الأوامر والنواهي التي وجهها صالح (عليه السلام) إلى قومه نجد كذلك تقويم الحركة الإنسانية في التعامل مع الكون المسخر كما في قوله تعالى: {**وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤)**}(٢).

وبالرغم من أن هناك رأيًا يقصر الفساد المنهي عنه هنا في عقر الناقة إلا أن الإمام الرازي رجح برؤيته المقاصدية أنه يعم كل أنواع الفساد.(٣)

وإذا جئنا إلى دعوة شعيب (عليه السلام) نجد طائفة من الأوامر والنواهي منصبة على إصلاح العلاقة الإنسانية الكونية (وَيَاقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥)(٤).

---

(١) التحرير والتنوير جـ ١٩صـ١٦٨.

(٢) سورة الأعراف آية رقم (٧٤).

(٣) التحرير والتنوير جـ ١٩صـ١٦٨.

(٤) سورة هود، آية رقم (٨٥).

وفي دعوة موسى (عليه السلام) نجد ذلك أيضًا: {**كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠)**}[١].

ولقد جاءت السنة لنبوية لتؤكد على هذه العلاقة فعن عبد الله بن مسعود قال: سمعت رسول (ﷺ) يقول: «إنكم منصورون ومصيبون ومفتوح لكم، فمن أدرك ذلك منكم فلْيتق الله، ولْيأمر بالمعروف، ولْينه عن المنكر:[٢]

وحين نستقرأ المنهيات النبوية نجد أن التعاطي المُفَوِّت لحالة التسخير هذه إحدى مفردات المنهيات النبوية، فعن معاذ بن جبل (رضي الله عنه)، قال: قال رسول الله (ﷺ): "اتقوا الملاعن الثلاثة: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل."[٣]

"واستُدِلَّ به على أنه لا يجوز قضاء الحاجة في المواضع التي يَرِدُها الناس للاستسقاء منها لإيذاء الناس بتنجيسهم وتقذيرهم، وبه صرح ابن قدامة الحنبلي وبعض المالكية والشافعية؛ لكن اقتصر جمهورهم على عَدِّه من الآداب، وحملوا الأحاديث على الكراهة."[٤]

---

(١) سورة البقرة، آية رقم (٦٠).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، جـ٤صـ٥٢٤ رقم (٢٢٥٧)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه أبو داود، ك: الطهارة، باب المواضع التي نهى النبي (ﷺ) عن البول فيها جـ١صـ٧ رقم (٢٦)، وأخرجه الحاكم في المستدرك بنحوه، ك: الطهارة، جـ١صـ٢٧٣ رقم (٥٩٤)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه (مرجع سابق)

(٤) فيض القدير شرح الجامع الصغير، زين الدين عبد الرؤوف المناوي، جـ١ صـ١٣٦، المكتبة التجارية الكبرى. مصر طـ١ (١٣٥٦هـ).

لقد دلت هذه المفردة من النواهي النبوية عن طبيعة العلاقة التي تغياها المنهج النبوي إزاء المحيط الكوني.

إنها بينت أن "علاقة الرسالة المحمدية بالإنسان والكون هي علاقة تأسست وتتأسس على مر الدهور والأزمان على إنتاج الكمالات الفعلية والمعنوية على وجه الأرض لإعلاء شأن الإنسان وتسخير الكون لأجل خدمته وخدمة البقاء النافع في الأرض."(١)

وقد أشار القرآن الكريم إلى انقلاب حالة التسخير بسبب الحركة البشرية الخارجة عن إطار المنهجية الربانية في قوله تعالى: {**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١)**}(٢).

ويبين لنا ابن عاشور الملامح الأولى لمفهوم الفساد المذكور في الآية ومظاهره الكائنة (**فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**) فيقول: "والفساد: سوء الحال، وهو ضد الصلاح، ودلَّ قوله: في البر والبحر على أنه سوء الأحوال في ما ينتفع به الناس من خيرات الأرض برها وبحرها."(٣)

إن انقلاب حالة التسخير ناتج كما صوَّرته الآية من سير البشرية على غير هدى المصلحين منها القائمين بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما حالة وجود هؤلاء، فإن هناك سنة إلهية أخرى جاءت في قوله تعالى: (**وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ**)(٤).

---

(١) الحضارة الإسلامية، جذور وامتدادات، د. سعاد رحائم، صـ١٣٠، كتاب الأمة عدد (١٢١)، رمضان (١٤٢٨هـ).

(٢) سورة الروم آية رقم (٤١).

(٣) تفسير التحرير والتنوير جـ١٨صـ٩٤.

(٤) سورة هود آية رقم (١١٧).

لكن ما المراد بحفظ الله الأمم حالة وجود المصلحين فيها؟

"إن الله لا يحفظ الأمم بذواتهم وبركة أجسادهم، ولا بعباداتهم الشخصية القاصر نفعها عليهم، بل بأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وطاعة الأمة لهم."(١)

حيث "إن الصالحين المصلحين في الأرض هم الذين يحفظ الله بهم الأمم من الهلاك ما داموا يُطاعون فيها بحسب سنة الله، كما أن الأطباء هم الذين يحفظ الله بهم الأمم من فُشُوِّ الأمراض والأوبئة فيها، ما دامت الجماهير تطيعهم فيما يأمرون به من أسباب الوقاية قبل حدوث المرض، ومن وسائل العلاج والتداوي بعده، فإذا لم يمتثل الجمهور لأمرهم ونهيهم فعل الفسادُ فعله فيهم."(٢)

ومن الأمور الكاشفة عن العلاقة بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبين التسخير أننا نرى القرآن الكريم حين يذكر لنا كيف كان عقاب الأمم التي حادت عن المنهج الربَّاني وتنكرت لدعوات رسل الله نرى صورةً مضادةً للكون المسخر لهذا الإنسان.

ففي قصة قارون بعدما تنكر قارون لوصية الذين أوتوا العلم باعتبارهم القائمين بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر انقلبت صورة الكون المُسَخر بالنسبة له {**فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (٨١)**}(٣).

ولم يكن هذا الجزاء قاصرًا على قارون فحسب؛ بل كان سنةً من السنن الإلهية التي بيَّنها القرآن {**فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)**}(٤).

---

(١) تفسير المنار جـ١٢صـ ٢٠١.

(٢) المرجع السابق جـ١٢صـ ٢٠١.

(٣) سورة القصص آية رقم (٨١).

(٤) سورة العنكبوت آية رقم (٤٠).

إننا نرى كل الظواهر الكونية وكأنها أضحت تسير في مجرى آخر مخالف لمعنى التسخير للإنسان المتنكر لنعمته.

"ولقد أراد الإسلام أن يرسم طريقًا أو منهجًا وسطًا بصدد هذا التعامل، فصاغ مبدأ بتسخير الطبيعة لخدمة الأهداف الإنسانية، ولكنه في الوقت نفسه ضبط صيغ التعامل بين الطرفين بقيم ومبادئ وأعراف تحقق أقصى درجات الكشف والإبداع."(١)

إن ضبط الحركة الإنسانية في علاقتها بالكون المسخر يخلق ما يمكن أن نطلق عليه (القوة التسخيرية)، تلك القوة التي "تعني القدرة على اكتشاف قوانين الخلق في الكون والنفس، واستثمارها في تطبيقات نافعة لبقاء النوع البشري ورقيه."(٢)

ومما ينبغي استحضاره في هذا الإطار أن كلًّا من الإنسان والكون مهيأ من حيث خِلقته لوجود هذا التفاعل المنضبط أي: "إن هناك تناسقًا جميلًا بين حركة الإنسان كما يريدها الله وحركة هذا الكون الذي أبدعه الله."(٣)

من خلال هذه المظاهر السابقة وغيرها يبرز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كركيزة لا يمكن إغفالها في قيام العلاقة المنضبطة بين الإنسان ومحيطه الكوني، وتوظيفه لهذا الكون المُسَخَّر في بناء حضاري إيماني.

(١) صفحات من حضارة الإسلام العلوم التطبيقية، دراسة في المعطيات وعوامل الازدهار والتوقف د. عماد الدين خليل صـ١٤٢.

(٢) مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح، د. ماجد عرسان الكيلاني صـ١١٥، مطبعة رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بقطر طـ١.

(٣) الكون والإنسان في التصور الإسلامي د. حامد صادق قنيبي صـ ١٣٠(مرجع سابق).

المطلب الخامس

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحقيق الفعالية الحضاري

النقطة الأولى: موقع الفعالية من البناء الحضاري

إذا كانت الخاصية الكبرى لهذا الإنسان تلك الملكات العقلية التي زُوِّدَ بها، فإن ثمار هذه الملكات لن تظهر إلا في محيط الحركة الإنسانية المنطلقة في هذه الحياة، ولعل هذا إحدى الحِكَم التي تظهر لنا من اقتران الحديث عن الملكات العقلية بالحديث عن ممهدات الحركة البشرية وامتداداتها.

إذاً، فالحركة البشرية وسيلة التحضر وبقدر انطلاقتها أولًا، ورشدها ثانيًا بقدر عِظَم النتاج الحضاري الذي تبدعه.

يقول مالك بن نبي: "فإذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ، وإذا سكن سكن المجتمع والتاريخ. ذلك ما تشير إليه النظرة في تاريخ الإنسانية منذ أن بدأ التاريخ، فنرى المجتمع حيناً يزخر بوجود النشاط وتزدهر فيه الحضارة، وأحياناً نراه ساكناً لا يتحرك يسوده الكساد وتغمره الظلمات، هل هذه المظاهر غير تعبير عن حركة الإنسان أو ركوده؟"(١).

وإذا أردنا صورةً توضح هذه القاعدة التاريخية الحضارية التي أكد عليها مالك بن نبي فيمكن أن نأخذ المجتمع الجاهلي ليكون تلك الصورة.

"فالمجتمع الجاهلي انعدمت فيه الفعالية الحضارية، وبالتالي فقد القدرة على التأثير في حوادث العالم التي كانت تمر بهدوء يحذر النائمين بعيداً عن كونه الجغرافي والفكري، هناك في ديار الحضارة الفارسية والرومانية؛ حيث كانت تُصنع الظاهرة الحضارية استجابة لعقيدة تلك المجتمعات."(٢)

---

(١) تأملات، مالك بن نبي، صـ ١٢٩، دار الفكر، دمشق، سورية، ط١ (١٩٧٩م).

(٢) المنهج النبوي والتغيير الحضاري، برغوث عبد العزيز بن مبارك صـ ١١٦.

ولكن كيف غيرت العقيدة الإسلامية بمنهجها البنائي من صورة هذا المجتمع؟

"إن مصدر الفعالية في عقيدة احتوتها رسالة الإسلام كان الأساس الفكري والروحي لإطار حضاري يحدد لإنسان العقيدة المؤمن بها والمؤتَمن على سيادة فكرتها وفلسفتها أسلوب التعامل والرقي، وإن تحديد الموقف الحضاري الذي يلتزمه المسلم في مختلف الأحوال والظروف أمر يقع في الصميم من مهمات المؤمنين بالله، والموقف الحضاري هذا لا يكون حضاريًّا ما لم يُحكم بحركة الإنسان وتواجداته وانطلاقاته."(١)

ولئن كان ما مضى تمثيلًا لحالة مجتمع فإننا يمكن أن نقرأ هذا الأثر الإسلامي في صنع الفعالية الحضارية على مستوى الأفراد، "فابن سينا لم يكن يعدو مجرد معطى مضمر ضمن أحد الصبغيات والظروف العامة للمجتمع الإسلامي في عصره هي التي حققته بالصورة التي برز عليها إلى الوجود."(٢)

وقد جاء الإسلام في منهجه العام في البناء الإنساني بالعمل على أمور ثلاث تتعلق بتلك الحركة الإنسانية، وهي:

الأول: دفع هذه الحركة إلى أقصى مداها.

الثاني: إزالة العوائق التي تحول بينها وبين ميدان الحياة.

الثالث: وضع الأطر التي تجعل منها حركة واعية بالبدايات والمآلات.

---

(١) فلسفة الحضارة الإسلامية، د. أحمد عبد الرحيم السايح، صـ ٤(مرجع سابق).

(٢) القضايا الكبرى، مالك بن نبي صـ٤٥، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، إشراف ندوة مالك بن نبينط١(١٩٩١م).

النقطة الثانية: مسالك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في صنع الفعالية الحضارية

وإذا نظرنا إلى قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذا السياق وجدنا أن هناك مسالك عدة تُظهر العلاقة بينها وبين حالة الفعالية تلك، وهي:

المسلك الأول: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو في حد ذاته صورة من صور الفعالية الحضارية؛ إذ ينتقل الإنسان فيها من حالة التأثر الدائم بالأحداث إلى حالة التأثير في مجراها.

"الأسباب التاريخية كلها تصدر عن سلوكنا وتتبع من أنفسنا، من مواقفنا حيال الأشياء، أعني من إرادتنا في تغيير الأشياء تغييرًا يحدد بالضبط وظيفتنا الاجتماعية، كما رسمها القرآن الكريم في قوله تعالى: {**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**}(١). والمعروف في أعم صوره، والمنكر في أشمل معانيه، يُكَوِّنان جوهر الأحداث التي تواجهنا يوميًّا كما يُكَوِّنان لب التاريخ. هذا هو المعنى العام للفعالية."(٢)

ولعل أول دلالة على هذه النتيجة مفهوم كل من الأمر والنهي؛ فإنهما يحملان دلالة أولية على معنى الفعالية، فالأمر في دلالته المجردة: قول القائل لمن دونه: افعل(٣)، والنهي في دلالته المجردة ضد الأمر، وهو قول القائل لمن دونه: لا تفعل.(٤)

---

(١) سورة آل عمرن آية رقم (١١٠).

(٢) تأملات، مالك بن نبي صـ ١٣١(مرجع سابق).

(٣) التعريفات للجرجاني صـ ٣٧.

(٤) المرجع السابق صـ ٢٤٨.

ويعرض لنا القرآن الكريم هذه العلاقة واضحة في العديد من نصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كقصة أصحاب السبت؛ حيث إن هذه القصة ترسم لنا مسارين متضادين للحركة البشرية.

فالمسار الأول: الذي تعرضه هو مسار حركة بشرية خارجة عن إطار المنهج الرباني، جانحة إلى وصف الاعتداء، أي: إنها في حالة فعالية، لكنها فعالية منحرفة لانحراف التصور القابع خلفها.

أما المسار الثاني: فهو مسار حركة بشرية مقابلة لهذا الاعتداء تحاول تصحيح مساره، أي: إنها في حالة فعالية منطلقة في اتجاهها الصحيح ومسارها المنضبط.

ورغم ما تحمله هذه القصة من قوة في الدلالة على دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في تحقيق الفعالية إلا أننا وجدنا توجيهًا للزمخشري قد يُضعف من هذه الدلالة حيث قال: " إذا علم الناهي حال المَنْهِيّ، وأن النهى لا يؤثر فيه، سقط عنه النهى. وربما وجب الترك لدخوله في باب العبث."(١)

لقد انتقد الشيخ رشيد رضا هذا التوجيه الزمخشري، وارتأى أن التوسع في الاستسلام لحالة اليأس، وجعلها مانعة من القيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يذهب بهذه الفريضة، ويذهب معها بالفعالية إلي تكتنفها.

"**أقول:** إن ما ذكره من سقوط النهي عن المنكر أو وجوب تركه في حالة اليأس من تأثير مرجوحٌ، ولاسيما إذا أُخِذ على إطلاقه، وإنما هو شأن أضعف

(١) تفسير الزمخشري جـ٢صـ١٧١ (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣ (١٤٠٧ هـ).

الإيمان في حديث: من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"[١][٢].

قال القاضي أبو يعلى: ويجب إنكار المنكر وإن لم يغلب في ظنه زواله.[٣]

وقد سُئِل أحمد (رحمه الله) عن الرجل يرى منكرًا ويعلم أن لا تقبل منه يسكت؟ فقال: إذا رأى المنكر فليغيره ما أمكنه.[٤]

وسُئِل حذيفة (رضي الله عنه) عن ميت الأحياء فقال: الذي لا ينكر المنكر بيده، ولا بلسانه، ولا بقلبه.[٥]

المسلك الثاني: حين أتى التوجيه النبوي دافعًا حالة الفعالية لدى المسلم، ذاكرًا له صورًا من صورها، واضعًا إياها في بوتقة من المفاهيم الشاملة كمفهوم الصدقة وجدنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يأتي كفردة من مفردات هذه الفعالية، ففي الحديث: "يصبح على كل سلامي من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزىء من ذلك ركعتين يركعهما من الضحى".[٦]

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، ك: الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان جـ١صـ٦٩ رقم (٤٩).

(٢) تفسير المنار جـ٩صـ٣١٩.

(٣) الكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جـ ١صـ١٢٣.

(٤) المرجع السابق جـ ١صـ١٢٣.

(٥) إحياء علوم الدين، الغزالي جـ٦صـ٤٤٨.

(٦) أخرجه الإمام مسلم، ك: الصلاة، باب استحباب صلاة الضحى جـ١صـ٤٩٨ رقم (٧٢٠).

ولقد بين لنا مالك بن نبي أن الحضارة الإسلامية قد جاءت بتجديدين للحركة الإنسانية، وهما:

الأول: نفى الأفكار الجاهلية البالية.

الثاني: رسم طريق الفكرة الإسلامية الصافية التي تخطط للمستقبل، بطريقة ايجابية."[١]

إننا نرى هذين التجديدين في ثنايا المنهج النبوي؛ حيث كان يجتث من المجتمع أيًّا من الحالات المعاكسة للفعالية الحضارية ثم يفتح له آفاقًا من الإيجابية، فعن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه)، عن النبي (ﷺ) قال: «إياكم والجلوس على الطرقات»، فقالوا: ما لنا بد، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: «فإذا أبيتم إلا المجالس، فأعطوا الطريق حقها»، قالوا: وما حق الطريق؟ قال: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر."[٢]

المسلك الثالث: ولعل في مجيء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقترنًا بمفاهيم التغيير والإصلاح يعطينا دلالة على العلاقة بينه وبين تكوين حالة الفعالية لدى المسلم تجاه الأحداث، ويضعنا حديث: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان.»[٣] في الصورة الكاملة لهذه العلاقة، فالرؤية تمثل حالة من حالات استقبال الحدث ليس إلا، أما التغيير فهو عنوان من عناوين الفعالية التي أرادها المنهج الإسلامي.

---

(١) انظر: شروط النهضة، مالك بن نبي صـ ٨١ (مرجع سابق).

(٢) أخرجه الإمام البخاري، ك: المظالم والغصب، باب أفنية الدور والجلوس فيها، والجلوس على الصعدات جـ٣صـ١٣٢ رقم (٢٤٦٥).

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، ك: الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان جـ١صـ٦٩ رقم (٤٩).

ويبين ابن عاشور أن مسلك القائمين بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مسك مضاد للقائمين بحالة الفساد في الأرض والإجرام فيها " والمصلحون مقابل المفسدين في قوله قبله: **(نْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ)**[1]، وقوله (وَكَانُوا مُجْرِمِين)[2][3].

وقد جاءت بعض نصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في صيغ المفاعلة كقوله تعالى: {**كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩)**}[4] "فالتناهي هنا: ظاهره التفاعل بمعنى الاشتراك أي: لا ينهى بعضهم بعضًا"[5].

إن هذه الصيغ تُظهر لنا أن الإسلام لا يريد أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مجرد فعالية ذاتية بقدر ما يكون فعالية اجتماعية.

واستمرارًا لحالة الفعالية التي يصوغها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أنفس القائمين به يقطع الإسلام كل الأعذار التي تكبت هذه الفعالية، ومن هذه الأعذار الظن بانعدام الرجاء في التغيير.

"قال العلماء (ﷺ) ولا يسقط عن المكلف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكونه لا يفيد في ظنه، بل يجب عليه فعله، فإن الذكرى تنفع المؤمنين، وقد قدمنا أن الذي عليه الأمر والنهي لا القبول."[6]

---

(١) سورة هود آية رقم (١١٦).

(٢) المصدر السابق (١١٦).

(٣) التحرير والتنوير جـ١٢ صـ ١٨٧.

(٤) سورة المائدة آية رقم (٧٩).

(٥) البحر المحيط جـ ٢صـ٢٩٤ (البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، طـ (١٤٢٠ هـ).

(٦) شرح النووي على صحيح مسلم جـ ٢صـ٢٢.

ويعطينا حديث السفينة دلالة قوية على دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في إذكاء حالة الفعالية المنشودة للبناء الحضاري، فعن النعمان بن بشير (رضي الله عنهما)، عن النبي (ﷺ) قال: "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، مثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعًا."(١)

وقد فُسِّر (القائم على حدود الله) بتفسيرين: "المستقيم على ما منع الله تعالى من مجاوزته، ويُقال: القائم بأمر الله معناه: الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر."(٢)

المسلك الرابع: وتأتي نصوص أخرى من نصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتبين أن هناك عللًا للحركة الإنسانية المصلِحة، ومن هذه العلل انعدام حالة الإيجابية وسيطرة اليأس من الإصلاح؛ لذا قال (ﷺ): "لا يحقر أحدكم نفسه، قالوا: يا رسول الله كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: يرى أمرًا لله عليه فيه مقال ثم لا يقول فيه،
فيقول الله (ﷻ) له يوم القيامة ما منعك أن تقول في كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس، فيقول: فإياي كنت أحق أن تخشى."(٣)

---

(١) أخرجه الإمام البخاري، ك: الشركة، باب: هل يقرع في القسمة والاستهام فيه جـ٣صـ١٣٩ رقم (٢٤٩٣).

(٢) تفسير الرازي جـ١٢صـ ٣٩٢.

(٣) أخرجه الإمام ابن ماجه في سننه، ك: الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، جـ١٢ صـ ١٣٢٨، رقم (٤٠٠٨)، (سنن ابن ماجه، ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، بدون، وقال=

وجاء النعي على من كان مسلكه أمام الانحرافات عن منهج الله مسلكًا سكونيًّا مع استطاعته الدخول في دائرة الفعالية المرتبطة بالتغيير، ففي الحديث: ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يغيروا ثم لا يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب.(١)

وحين كان من العلل التي تقعد بالإنسان عن السير في منحى الفعالية تَوَهُّمه بالعلاقة التلازمية بين هذه الفعالية وبين المورد المالي أتى التوجيه النبوي ليبين أن هذا التلازم مجرد وهم من الأوهام، وأن هذه الفعالية يمكن أن يقوم بها الإنسان دون مورد مالي، وذلك عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فعن أبي ذر (ﷺ) قال سألت رسول الله (ﷺ) ماذا يُنجي العبد من النار قال الإيمان بالله، قلت يا نبي الله، مع الإيمان عمل، قال: أن ترضخ(٢) مما خوَّلك الله، وترضخ مما رزقك الله، قلت يا نبي الله، فإن كان فقيرًا لا يجد ما يرضخ قال: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.(٣)

=البوصيري: هذا إسناد صحيح، (مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايماز بن عثمان البوصيري الكناني الشافعي، تحقيق: محمد المنتقى الكشناوي، دار العربية، بيروت، ط٢ (١٤٠٣هـ).

(١) أخرجه الإمام أبو داود، ك: الملاحم، باب الأمر والنهي جـ٤صـ١٢٢ رقم (٤٣٣٨)

(٢) أي تعطي، ينظر:مقاييس اللغة لابن فارس جـ٢صـ٤٠٢.

(٣) أخرجه الإمام المنذري في الترغيب والترهيب، باب الترغيب في الصدقة والحث عليها وما جاء في جهد المقل، (الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله المنذري، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت ط١، (١٤١٧هـ)، وأخرجه الإمام الحاكم في المستدرك بنحوه جـ١صـ١٣٢ رقم (٢١٢)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم: (المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١(١٤١١ هـ – ١٩٩٠م).

المسلك الخامس: أن التراجع عن أداء الدور الإصلاحي نذير بالدخول في دائرة التداول الحضاري ليس من إطاره الإيجابي، بل من إطاره السلبي المتمثل في هذا الوعيد القرآني {**وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)**}[١].

"فمن خلال مفردات هذه الآية تنكشف جملة معاني منها: أن الاستبدال يكون في أعقاب التولي بمعنى التراجع عن أداء الواجب من الأفراد والشعوب والأمم، وأن المستبدَل به يكون على غير المستبدل منه وليس مثله؛ حيث يختلفان، فالأول يتصف بالسلبية، والثاني يتصف بالإيجابية."[٢]

وإذا نظرنا إلى مسير الحضارات عبر التاريخ الإنساني لرأينا كيف أن من أسباب انهيار الحضارات تَنَكُّرها لفعالية التغيير

"هذا ما يُفقه من سنن تداول التاريخ العام الذي احتفظ بقائمة أسماء أمم جرت عليها إجراءآت السنن كالفرس الأمة المجوس الغارقة في التعفن العقائدي تعفن أفكار مازدك وسواه والروم بالقوة القانونية والعسكرية التي هيمنت على جزء واسع من خريطة العالم ولكنها فقدت قيم العدل والحق والحياة الروحية، وانغمست في اللهو والظلم، فجرت عليها سنن السقوط الحضاري، فآلت إلى ما آلت إليه، ثم خرجت الأمة الإسلامية من بينها بعدما كانت شعوبًا وقبائل تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله، الوظيفة التي لم يؤدها الفرس والروم."[٣]

إن معنى ما مضى أن الإسلام يدفع من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحركة الإنسانية في إطار من الفعالية التغييرية للتجاوب مع السنن الحياتية، وإبداع نمط قِيَمي حضاري.

(١) سورة محمد آية رقم (٣٨).

(٢) سنن التداول ومآلات الحضارة، د. محمد هيشور صـ ٢٤٦.

(٣) المرجع السابق صـ ٢٣٥.

المطلب السادس

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحقيق الشهود الحضاري

بالرغم من تعدد مظاهر الضغط الحضاري الذي يكتنف واقع الأمة إلا أن أعظم هذه المظاهر على الإطلاق أن تفقد الأمة روحها وكينونة وجودها وجوهر هويتها، ويأتي الشهود الحضاري لهذه الأمة ليمثل المظهر الأعظم لهذه الروح وذاك الجوهر.

والحقيقة أنه لا بد من اختلاف النظرتين إلى كل من حالة التراجع الحضاري التي تكتنف واقع الأمة الراهن والشهود الحضاري للأمة، فالأول ظرف تاريخي له ما للظرف التاريخي من الخصوصية، أما الشهود الحضاري للأمة القائم على خيريتها، فهو مفهوم له ما للمفاهيم من الثبات والديمومة، من هنا فلا يمكن تحكيم الظرف التاريخي القابل للتغير في المفهوم القابع في جوهر الأمة.

إن سيل الأفكار الغازي للأمة لا يريد أن يجرف عالمها من الأشياء بالرغم من صيرورته في حالة المادة الخام، ولا عالم الأشخاص رغم تكديسه في حالة من انعدام أو ضعف الفعالية، بل إنه يروم تجريف روح الأمة وجوهر وجودها وخواصها التي لا يمكن تخيلها إلا بها، ومن هذه الخواص أنها أمة شاهدة على الأمم كما أصَّل لها النص القرآني في قوله تعالى: {**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (١٤٣)**}[1].

إن الشهادة هنا ذات شقين شهادة للأمم، وشهادة عليها.

"والشهادة على الأمم تكون لهم وعليهم، ولكنه اكتفى في الآية بتعديتها بعلى إشارة إلى أن معظم شهادة هذه الأمة وأهمها شهادتهم على المعرضين؛ لأن المؤمنين قد شهد لهم إيمانهم، فالاكتفاء بعلى تحذير للأمم من أن يكونوا بحيث

(١) سورة البقرة آية رقم (١٤٣).

يُشهد عليهم، وتنويه بالمسلمين بحالة سلامتهم من وصمة أن يكونوا ممن يشهد عليهم، وبحالة تشريفهم بهيأته المنقبة، وهي إتقاف المخالفين لهم بموجب شهادتهم."[1]

خيرية الأمة والشهود الحضاري

وتأتي خيرية الأمة لتكون العنوان الأكبر والجامع لهذا الإطار القيمي الذي تتحقق به حالة الشهود الحضاري؛ حيث كان من مقتضيات خاتمية هذه الرسالة واتساعها زماناً ومكاناً أن تكون الأمة الحاملة لها ذات طبيعة مختلفة عن الأمم التي حملت الرسالات الماضية، وهذا الاختلاف لا يمكن النظر إليه تلك النظرة الضيقة الأفق التي لوَّثت الفكر البشري، أعني نظرة التفاضل الموهوم الذي يرجع إلى العرق أو الجنس أو اللون، إنما ينبغي النظرة إليه نظرةً ترجع إلى اتساع التعلق برسالة خاتمة جمعت كل دلائل الاهتداء البشري العام.

إن معنى هذا أن خيرية الأمة ينبغي وضعها في سياق خيرية الرسالة التي تحملها، وهذا يوجب علينا النظر المتأني والمتتابع في حقيقة هذه الرسالة.

ولا شك أن من أعظم الآيات المُؤَصِّلة لهذه الخيرية قوله تعالى: {**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)**}[2].

إن البحث في هذه الآية ذو امتدادات متشعبة، لكن هذه الامتدادات تلتقي جميعها في رسم معالم الخيرية.

أولى هذه المعالم أن التمايز الذي تحمله هذه الآية المباركة هو في الحقيقة يمثل دافعية لهذه الأمة نحو طريق اتباع المنهج الإلهي؛ حيث "إنه تعالى أردف

---

(١) التحرير والتنوير جـ٢صـ٢١.

(٢) سورة آل عمرن آية رقم (١١٠).

ذلك بطريق آخر يقتضي حمل المؤمنين على الانقياد والطاعة فقال: (كنتم خير أمة)، والمعنى أنكم كنتم في اللوح المحفوظ خير الأمم وأفضلهم، فاللائق بهذا أن لا تُبطلوا على أنفسكم هذه الفضيلة، وأن لا تُزيلوا عن أنفسكم هذه الخصلة المحمودة، وأن تكونوا منقادين مطيعين في كل ما يتوجه عليكم من التكاليف."(١)

إن معنى هذا أن الترجمة الحقيقية لخيرية الأمة التي يؤصل لها الإسلام في هذه الآية هي في اتباع المنهج الإلهي بجميع مفرداته والتي منها بلا شك تعمير الأرض وإقامة البناء الحضاري في ضوئه؛ لذا فمحدد البعد المفاهيمي للفظ الأمة في هذه الآية هو في تَمَثُّل المنهج الرباني وليس مجرد الاتحاد زمانًا أو مكانًا.

"**قال القفال** (رحمه الله)**:** أصل الأمة: الطائفة المجتمعة على الشيء الواحد، فأمة نبينا (ﷺ) هم الجماعة الموصوفون بالإيمان به والإقرار بنبوته، وقد يُقال لكل من جمعتهم دعوته أنهم أمته إلا أن لفظ (الأمة) إذا أُطلقت وحدها وقع على الأول."(٢)

المعلم الثاني: أن في المعروف الذي تأمر به الأمة والمنكر الذي تنهى عنه عمومًا، وهذا ما قرره الآمدي قائلًا:" الألف واللام إذا دخلت على اسم الجنس عمَّت...، ومقتضى صدق الخبر بذلك أمرهم بكل معروف، ونهيهم عن كل منكر."(٣)

ويعطينا الآمدي بملكته المنطقية الأصولية حجتين على هذا العموم.

---

(١) تفسير الرازي جـ ٨صـ ٣٢٣.

(٢) المرجع السابق جـ ٨ صـ ٣٢٥.

(٣) الإحكام في أصول الأحكام، أبو الحسن سيد الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي الآمدي، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، جـ ١صـ٢١٥، المكتب الإسلامي، بيروت– دمشق– لبنان، بدون.

الأولى: أنهم "إذا أمروا بشيء إما أن يكون معروفًا أو منكـرًا، لا جـائز أن يكون منكرا وإلا لكانوا ناهين عنه ضرورة العمل بـالعموم الـذي ذكرنـاه لا آمرين به، وإن كان معروفا، فخلافه يكون منكرًا وهو المطلوب، وإذا نهوا عن شيء، فإما أن يكون منكرا، أو معروفا لا جائزًا أن يكون معروفاً، وإلا لكـانوا آمرين به ضرورة ما ذكرناه من العموم لا ناهين عنه، وإن كان منكرا فخلافـه يكون معروفًا وهو المطلوب."(١)

الثانية: أن "الآية إنما وردت في معرض التعظيم لهذه الأمة وتمييزها علـى غيرها من الأمم؟ فلو كانت الآية محمولة على البعض دون البعض لبطلت فائدة التخصيص، فإنه ما من أمة إلا وقد أمرت بالمعروف كاتباع أنبيائهم وشرائعهم، ونهت عن المنكر كنهيهم عن الإلحاد وتكذيب أنبيائهم."(٢)

الأمر الثالث: أن هذه الآية تمثل في رأي كثير من العلماء حجة على العلاقة التلازمية بين إجماع الأمة ذات الخيرية وبين مُثُل الحق والخير التـي لا قـوام للحضارة الحقيقية إلا بهما.

قال الرازي: "احتج أصحابنا بهذه الآية على أن إجماع الأمة حجة، وتقريـره من وجهين:

الأول: قوله تعالى: **(وَمِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)**"(٣)، ثم قال في هذه الآية: (كنتم خير أمة)، فوجب بحكم هذه الآية أن تكون هذه الأمـة أفضل من أولئك الذين يهدون بالحق من قوم موسى، وإذا كان هـؤلاء أفـضل

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام، أبو الحسن سيد الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سـالم الثعلبي الآمدي، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، جـ ١صـ٢١٥، المكتـب الإسـلامي، بيروت– دمشق– لبنان، بدون.

(٢) المرجع السابق جـ ١صـ٢١٥.

(٣) سورة الأعراف آية رقم (١٥٩).

منهم وجب أن تكون هذه الأمة لا تحكم إلا بالحق؛ إذ لو جاز في هذه الآيــة أن تحكم بما ليس بحق لامتنع كون هذه الأمة أفضل من الأمة التي تهدي بــالحق، لأن المبطل يمتنع أن يكون خيرًا من المحق، فثبت أن هذه الأمــة لا تحكــم إلا بالحق، وإذا كان كذلك كان إجماعهم حجة.

الوجه الثاني: وهو (أن الألف واللام) في لفظ (بالمعروف) ولفــظ (المنكــر) يفيدان الاستغراق، وهذا يقتضي كونهم آمرين بكل معروف، وناهين عــن كــل منكر، ومتى كانوا كذلك كان إجماعهم حقًّا وصدقًا لا محالة فكان حجة."[١]

الأمر الثالث: أنه يجعل من هذه الخيرية مزيةً إنسانيةً عامةً؛ لأن تحقق الأمة بمقتضياتها هو في واقع الأمر تحقَّقٌ بما تحتاجه الإنسانية.

"قوله: (أخرجت للناس) فيه قولان:

الأول: أن المعنى كنتم خير الأمم المُخْرَجة للناس في جميع الأعصار، فقوله (أخرجت للناس) أي أُظهرت للناس حتى تميزت، وعُرِفت، وفُصِل بينها وبــين غيرها.

والثاني: أن قوله للناس من تمام قوله: (كنتم)، والتقدير: كنتم للنــاس خيــر أمة، ومنهم من قال: أُخرجت صلة، والتقدير: كنتم خير أمة للناس."[٢]

إن الامتدادات السابقة لهذه الآية كشفت عن الإطار الجمعي لأتباع الرســول الخاتم ومدى فعاليته، ويأتي الامتداد الرابع ليكشف عن علة هذه الخيرية، وهــو المتمثل في قوله تعالى: **(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَــنِ الْمُنْكَــرِ وَتُؤْمِنُــونَ بِاللَّهِ)**.

---

(١) تفسير الرازي جـ ٨صـ ٣٢٥.

(٢) المرجع السابق جـ ٨صـ ٣٢٥.

"اعلم أن هذا كلام مستأنَف، والمقصود منه بيان علة تلك الخيرية، كما تقول: زيد كريم يُطعم الناس، ويكسوهم، ويقوم بما يصلحهم، وتحقيق الكلام أنه ثبت في أصول الفقه أن ذكر الحكم مقروناً بالوصف المناسب له يدل على كون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف، فههنا حكم تعالى بثبوت وصف الخيرية لهذه الأمة، ثم ذكر عقيبه هذا الحكم وهذه الطاعات، أعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان، فوجب كون تلك الخيرية مُعَلَّلة بهذه العبادات."(١)

وحين كانت هذه الآية مُوضِّحة لمدى توطد العلاقة بين مفهوم الخيرية ومرتكز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر برزت تساؤلات عدة حول هذه العلاقة لتعمق إجاباتها من جلائها.

وكان التسآؤل الأول الذي برز إلى الفكر هو البحث في الحيثية الرابطة بين خيرية الأمة من جهة وكل من مفهومي الإيمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من جهة أخرى، وقد عبر الرازي عن هذه التساؤل بقوله:

السؤآل الأول: من أي وجه يقتضي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله كون هذه الأمة خير الأمم مع أن هذه الصفات الثلاثة كانت حاصلة في سائر الأمم؟.

السؤال الثاني: لِمَ قُدِّمَ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله في الذكر مع أن الإيمان بالله لا بد وأن يكون مُقَدَّمًا على كل الطاعات؟.

والجواب: أن الإيمان بالله أمر مشترك فيه بين جميع الأمم المحقة، ثم إنه تعالى فضَّل هذه الأمة على سائر الأمم المحقة، فيمتنع أن يكون المؤثر في حصول هذه الخيرية هو الإيمان الذي هو القدر المشترك بين الكل، بل المؤثر في حصول هذه الزيادة هو كون هذه الأمة أقوى حالًا في الأمر بالمعروف

(١) تفسير الرازي جـ ٨صـ ٣٢٥.

والنهي عن المنكر من سائر الأمم، فإذن المؤثر في حصول هذه الخيرية هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأما الإيمان بالله فهو شرطٌ لتأثير هذا المؤثر في هذا الحكم لأنه ما لم يوجد الإيمان لم يَصِر شيء من الطاعات مؤثرا في صفة الخيرية، فثبت أن الموجب لهذه الخيرية هو كونهم آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، وأما إيمانهم فذاك شرط التأثير، والمؤثر ألصق بالأثر من شرط التأثير، فلهذا السبب قدم الله تعالى ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ذكر الإيمان."[١]

واتَّجه الألوسي وِجهةً أخرى في سر ترتيب الآية فقال: "ويجوز أيضا أن يكون ذلك للتنبيه على أن جدوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الدين أظهر مما اشتمل عليه الإيمان بالله تعالى؛ لأنه من وظيفة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.[٢]

ولقد كان الصحابة (ﷺ) على وعي بأن هذه الخيرية لها محدداتها التي ينبغي على من رام الانضواء تحتها أن يتمثل بها؛ لذا جاء عن عمر:"يا أيها الناس من سره أن يكون من تلكم الأمة فَلْيُؤَدِّ شرط الله تعالى منها.»[٣]

فعمر (ﷺ) "أشار بذلك إلى قوله سبحانه: **(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)**، فإنه وإن كان استئنافاً مُبَيِّنا لكونهم خير أمة، أو صفة ثانية لأمة على ما قيل إلا أنه يُفْهِم الشرطية، والمتبادر من المعروف الطاعات، ومن المنكر المعاصي التي أنكرها الشرع."[٤]

---

(١) تفسير الرازي جـ٨ صـ ٣٢٦.

(٢) تفسير الألوسي جـ ٢صـ٢٤٤.

(٣) تفسير الرازي جـ٨ صـ ٣٢٦.

(٤) المرجع السابق جـ٨ صـ ٣٢٦.

ونحا الإمام محمد عبده منحى ثالثًا في بيان السر في تقديم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله أضاف من خلاله بعدًا آخر من أبعاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال: "أما تقديم ذكر الأمر والنهي على الإيمان، فالحكمة فيه أن هذه الصفة (الأمر والنهي) محمودة في عرف جميع الناس: مؤمنهم وكافرهم، يعترفون لصاحبها بالفضل، ولما كان الكلام في خيرية هذه الأمة على جميع الأمم مؤمنهم وكافرهم قدم الوصف المتَّفق على حسنه عند المؤمنين والكافرين، وهناك حكمة أخرى وهي أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سياج الإيمان وحفاظه، فكان تقديمه في الذكر موافِقا لمعهودٍ عند الناس في جعل سياج كل شيء مُقَدَّما عليه."(١)

إننا يمكن أن نلخص كل الدلالات السابقة في النقاط التالية:

١- أن هناك علاقة محورية بين تحقق الأمة بالشهود الحضاري وتحققها بمعنى الخيرية التي خُصَّت بها.

٢- أن هذه الخيرية التي خُصَّت بها هذه الأمة هي إتمام لمضامين الرسالات السابقة لكن في إطار ختامي قابل للامتداد الزماني والمكاني.

٣- أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمثل الركيزة الأساسية في تحقق الأمة بجوهر خيريتها؛ لذا جاء ارتباطه بهذه الخيرية في سياق عام لكل أفراد المعروف أمرا به والمنكر نهيا عنه، وعاما لكل أفراد الأمة ليكون هذا العموم متسقا مع مضمون الخيرية.

---

(١) تفسير المنار جـ ٤صـ٥٣.

نتائج البحث

١- رغم تعدد السياقات التي يمكن تناول قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خلالها إلا أن السياق الحضاري له محوريته الكبرى باعتباره مقصدًا عظيمًا من مقاصد هذا الدين.

٢- إذا كان التهذيب الذاتي هو الانطلاقة الحقيقية لأي بناء حضاري، فإن المنهج الإسلامي اتخذ عدة مسالك لتحقيق هذا التهذيب، ويأتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليمثل إحدى أعظم هذه المسالك.

٣- إذا كان المفهوم الأوَّلي للمعروف الذي يُؤمَر به في الإسلام ينضوي تحته كل حركة إنسانية هادفة ساعية في إصلاح هذه الأرض، فإن هذه الحركة بعينها ركن ركين، وجزء لا يتجزأ من مفهوم الاستخلاف القرآني.

٤- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يشكل إحدى الضمانات لانتظام العلاقة بين الحركة الإنسانية الراشدة والمحيط الكوني المسخر.

٥- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو في حد ذاته صورة من صور الفعالية الحضارية.

٦- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمثل الركيزة الأساسية في تحقق الأمة بجوهر خيريتها؛ لذا جاء ارتباطه بهذه الخيرية في سياق عام لكل أفراد المعروف أمرًا به، والمنكر نهيا عنه، وعامًّا لكل أفراد الأمة ليكون هذا العموم متسقًا مع مضمون الخيرية.

المصادر والمراجع

- الأبعاد المعرفية لمفهوم الاستخلاف، د. صبري محمد خليل، مركز التنوير المعرفي (٢٠٠١م).
- إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، دار المعرفة، بيروت، بدون.
- آداب النفوس، الحارث بن أسد المحاسبي، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الجيل، بيروت، لبنان – بدون.
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخَلَّال، تحقيق: د. يحيى مراد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١ (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م).
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا، تحقيق: صلاح بن عايض الشلاحي، مكتبة الغرباء الأثرية، السعودية، ط١(١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أصوله، وضوابطه، وآدابه، خالد بن عثمان السبت، ط١(١٤١٥هـ- ١٩٩٥م).
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي، تحقيق: سمير بن أمين الزهيري، دار السلف، ط١(١٤١٦هـ - ١٩٩٥م).
- الإنسان في القرآن، عباس محمود العقاد، دار نهضة مصر، ط٤(٢٠٠٥م).

• البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ط(١٤٢٠ هـ).
• البيان في التمدن وأسباب العمران، رفيق العظم، تقديم عبد الرحمن حللي، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، مكتبة الأسكندرية (١٤٣٤هـ-٢٠١٢م).
• تأملات، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق سورية، ط١(١٩٧٩م).
• التحرير والتنوير(تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس (١٩٨٤م).
• تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم) محمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (١٩٩٠م).
• تفسير النيسابوري (غرائب القرآن ورغائب الفرقان)، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١(١٤١٦هـ).
• تكامل الحضارات بين الإشكاليات والإمكانيات، عطا محمد حسن، سلسلة الأمة، عدد (١٦١).
• الحضارة – الثقافة – المدنية، دراسة لمسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، د. نصر محمد عارف، المعهد العالي للفكر الإسلامي، سلسلة المفاهيم والمصطلحات(١)، ط٢ (١٤١٥هـ-١٩٩٤م).
• الحضارة الإسلامية تشرق من جديد، أنور الجندي، دار الأنصار بالقاهرة (بدون).

- الحضارة الإسلامية جذور وامتدادات، د. سعاد رحائم، كتاب الأمة عدد (١٢١)، رمضان (١٤٢٨هـ).
- الحضارة، دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها د. حسين مؤنس، سلسلة عالم المعرفة عدد (١) (١٩٧٨م).
- خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، بحث في جدلية النص والعقل والواقع، عبد المجيد النجار، المعهد العالي للفكر الإسلامي، سلسلة المنهجية الإسلامية (٥)، دار الغرب الإسلامي، طـ ٢ (١٤١٣ هـ- ١٩٩٣م).
- الذريعة إلى مكارم الشريعة، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، تحقيق: د. أبو اليزيد العجمي، دار السلام، القاهرة، (١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧ م).
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، طـ١(١٤١٥ هـ).
- الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية، دراسة مقارنة، د. عبد الله محمد الأمين، العدد (١٥٣) المحرم (١٤٣٤هـ)، إدارة البحوث والدراسات الإسلامية بقطر.
- سنن التداول ومآلات الحضارة، د. محمد هيشور، سلسلة روافد، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية إصدار(٦١) يناير (٢٠١٣م).
- سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، د. محمد هيشور، المعهد العالي للفكر الإسلامي، القاهرة، طـ١ (١٤١٧هـ - ١٩٩٦م).
- شروط النهضة، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق سورية، طـ(١٩٨٦م).

- صراع الحضارات بين عولمة غربية وبعث إسلامي، د. جعفر شيخ إدريس، إصدار مجلة البيان طـ١(١٤٣٣هـ).
- صفحات من حضارة الإسلام (العلوم التطبيقية، دراسة في المعطيات وعوامل الازدهار والتوقف)، د. عماد الدين خليل، كلية التربية جامعة الموصل، بدون.
- عطاء الإسلام الحضاري، أنور الجندي، سلسلة دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي، عدد (١٦٣)، رجب (١٤١٦هـ- ١٩٩٦م).
- فلسفة الحضارة الإسلامية، د. أحمد عبد الرحيم السايح، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية وزارة الأوقاف، سلسلة: دراسات في الإسلام (١٤١٠هـ-١٩٨٩م).
- في الفقه الحضاري، حول منهج جديد لدراسة حضارة الإسلام، د. عماد الدين خليل، كلية التربية جامعة الموصل، بدون.
- قصة الحضارة، ول ديورانت، دار الجيل (١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م).
- القضايا الكبرى، مالك بن نبي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، إشراف ندوة مالك بن نبي، طـ١(١٩٩١م).
- قيم الإسلام الحضارية، نحو إنسانية جديدة، د. محمد عبد الفتاح الخطيب، تقديم:عمر عبيد حسنه، سلسلة كتاب الأمة، السنة الثلاثون، العدد (٣٩) رمضان (١٤٣١هـ)، إدارة الدراسات الإسلامية والبحوث، قطر.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، دار الكتاب العربي، بيروت، طـ٣(١٤٠٧هـ).

• الكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي داود الحنبلي الدمشقي الصالحي، تحقيق: د. مصطفى عثمان صميدة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ (١٤١٧هـ- ١٩٩٦م).

• الكون والإنسان في التصور الإسلامي، د. حامد صادق قنيبي، مكتبة الفلاح، الكويت (١٤٠٠هـ-١٩٨٠م).

• لطائف الإشارات (تفسير القشيري) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط٣.

• معالم القربة في طلب الحسبة، محمد بن محمد بن أحمد بن أبي زيد بن الأخوة، القرشي، ضياء الدين، دار الفنون «كمبردج».

• معيار الوحي في الفكر الإسلامي، عبد المجيد مكين، ندوة عقدت باليابان عن قضايا الحضارة الإسلامية واليابان، طوكيو (٢٠- ٣٠ مارس ١٩٨٠م).

• مفاتيح الغيب، أو التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط٣، (١٤٢٠هـ).

• المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق بيروت، ط١ (١٤١٢هـ).

• مقدمات في البعث الحضاري، د. سيد دسوقي حسن، دار القلم، الكويت، ط١(١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م).

• مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح، د. ماجد عرسان الكيلاني، مطبعة رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بقطر ط١.

- منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، د. محمد سعيد رمضان البـــوطي، دار الفكر المعاصر – بيروت لبنان (١٩٩٨م).
- المنهج النبوي والتغيير الحضاري، برغوث عبد العزيز مبارك، تقديم:عمـــر عبيد حسنه، سلسلة كتاب الأمة (٤٣)، رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية، قطر، طـــ١(١٤١٥هـــ-١٩٩٥م).
- الموافقات، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بـــن حـــسن آل ســـلمان، دار ابـــن عفـــان، طـــــ١ (١٤١٧هـــ - ١٩٩٧م).
- ميزان العمل، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، تحقيق: د. سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، طـــ١(١٩٦٤م).
- نظرات في مسيرة العمل الإسلامي، عمر عبيد حـــسنه، مؤســـسة الرســـالة، (١٤٠٥هـــ- ١٩٨٥م).

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٢٩٨٧
التمهيد	٢٩٩١
مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٢٩٩٢
مفهوم الحضارة	٢٩٩٦
محورية السياق الحضاري في تناول القضايا الإسلامية.	٣٠٠٠
المطلب الأول: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحقيق التهذيب الذاتي	٣٠٠٧
المطلب الثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحقيق مرتكز التكريم	٣٠٢١
المطلب الثالث: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحقيق مرتكز الاستخلاف	٣٠٤٣
المطلب الرابع: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحقيق مرتكز التسخير	٣٠٥١
المطلب الخامس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتشكيل الفعالية الحضارية	٣٠٦١
المطلب السادس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحقيق الشهود الحضاري	٣٠٧١
نتائج البحث	٣٠٧٩
المصادر والمراجع	٣٠٨٠
فهرس الموضوعات	٣٠٨٦